

أحمد بن هطال الثلمساني

رَحْلَةُ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِ

”بأبي الغرب البحراني“

إلى الجنوب الصحراوي الجزائرى

تحقيق وتقديم
محمد بن عبد الكريم

الناشر
عالم الكتب
القاهرة

أحمد بن هطال التلمساني

رحلته محمد الكبير

"باي الغرب البحر اوى"

الى الجنوب الصحراوى البحر اوى

تحقيق وتقديم

محمد بن عبد الكريم

108

د. ب. س.

الناشر

عالم الكتب

القاهرة

10/2/06

أحمد بن هطال النمساني

١٢٨١٥٥

رَحَلَةُ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِ

”باي الغرب الجزائري“

إلى الجنوب الصحراوي الجزائري

Centre de Formation Administrative
de ...
N° d'inventaire ...

تحقيق وتقديم

محمد بن عبد الكريم

الناشر

عالم الكتب

الطبعة الأولى يونيو ١٩٦٩
الناشر : عالم الكتب
للطبعة : تخيمر

٣٨ شارع عبد المالح ثروت بالقاهرة ت ١٤٠١
٢٩ شارع الجيش بالقاهرة ت ١١٩٣

واحوجهم الى توفيقه وتيسيره ارحم الراحمين
 بفتح الميم بي عنه يا ارحم الراحمين هكاهل كالبه من الله تعالى
 ان يجبر صدق فلو نبت ويغفر جميع ذنوبه وان يحل الله
 لستهد لاند لمعاذنا انه ولي ذلك والقادر عليه وعلى
 الله على سبيلك محمد وواله عطفه ما ذكره الله اكرروا
 غفر عن ذنوب القاطنين وواحد دعونا ان الحمد لله رب
 العالمين تم تقسيم هذه الانوار في عشرة يوم
 الحدين الثاني والعشرين من شهر الله في القعدة
 سنة اثني بعد اربعين والالف على يد عبده
 ربه واحوجهم اليه المفضل بن عبد الله بن محمد بن
 البشير بن محمد اقرى التماسي دارا ومفتلا غفر
 الله له ولوالديه ولا حياءه ولا حياءه ولا حياءه
 والمومنين والمومنان والمومنين والمومنان
 والاموات والاعوان والاعوان والاعوان
 الهى العليم وواحد

سنة ١٢٠٢

دعونا ان الحمد لله

رب العالمين

٢٢
يخرج في القعدة ١٢٠٢

٢١

ع

- ٢ -

الصفحة الأخيرة من مخطوط المكتبة الوطنية رقم : ١٦٤٤

والله وحده
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد

قد الشبه الفقيه الخبير النبي لسان الرولة
و قد من النبوة أبو العباس القيس بن محمد بن علي
ابن محمد بن هلال التلعكبري كثير العلم وحجج
الافواه رضي الله عنه
الحجج لسان الله الاصباح وجعله الديل سكران
و متخرج الارواح و مصمم الاشباح ثم واصل
و مفضل الله فكل من بدلتك المبلغ لكل مند
والسلامة والسلا على نبيته و مولاه محمد افضل
مرسله و مرسلنا و على والد و اصحابه و احرك
رسول الله صلى الله عليه و آله و آله و آله
مرجل الزعم فزار و اكملهم بحاسن و احسن
و هو احسن من كل خلق عليه علم العربية و كان
احق و افضل من تنعق فيه الرخلة بر المسبية
و تصرف اليه الصع الزكية انما به عرفت فدمر
الدم و به حقت مجاز اخلا فم و الشيع
فا شغلته به علماء كل فكر و صنعت فيه اذ بع
عمل محض حتى ملئت منه الخراب و كثرت
فيه الرسايل و الثروا و تير في بعضه آخر بطريق
كفيه و آخر آخر في كل واحد به و بعضه
اكثر في المنك و مشرب مشرب من عجب و عجب

تَصْدِير

تحقيق مخطوط قديم عمل في وهادف في نفس الوقت : فهو عمل فني لأنه يقوم على قواعد أساسية ويتطلب مهارة وإخلاصا وتجردا . وقليل من الناس في كل أمة وكل جيل يستطيعون القيام بهذه المهمة الشاقة الدقيقة . أما كونه عملا هادفا فلأن بحث المخطوط يخدم فكرة ، وبالتالي مصلحة وطنية وإنسانية . ولعل هذه من الحالات النادرة التي يجمع فيها المرد بين إخلاصه . افنه وإخلاصه لهدفه الإنساني . وإن ظاهرة العصر الذي نعيشه ، ظاهرة التحرر من الاستعمار ، تبرر الجمع بين هذين الإخلاصين .

الذين عرفوا الاستاذ محمد بن عبد الكريم ، محقق مخطوطة « رحلة محمد الكبير » يدركون ما أعنى . فهو يبدي كثيرا من الاهتمام بالمخطوطات ، ولا سيما تلك التي تناول حياة الجزائر عبر القرون الأربعة الماضية . وقد أطلعني على عدد من الأعمال التي قام بتحقيقها كما أطلعني على عدد من المشاريع التي يتزم ببحث الحياة فيها . وقد وجدت من خلال ذلك كله إنسانا ذووبا مخلصا لمهته الثقافية .

وإن نظرة سريعة إلى المؤلف وموضوعه تؤكد ذلك ، فابن هطال شخصية هامة في تاريخ الجزائر ولكنها مغمورة . فهو كسفتشار ، وكاتب ودبلوماسي ومحارب قد عاش فترة خصبة من تطور هذه البلاد جديرة بالتسجيل والبحث . ليس ابن هطال نفسه هو الذي يبرف التاريخ بأنه « من أجل العلوم قدرا » وأكلها محاسن وغفرا . . . إذ به عرفت قدماء الأمم . . . » ؟ وقد سجل في كتابه رحلة محمد الكبير ، باى وهران إلى الجنوب « مقبدا » كما يقول ، « بالسوانح سراحله ومبيننا منازلهم ومنازلهم » وإذا كانت شخصية ابن هطال

هامة ثنائيا فإن موضوعه هام من عدة جوانب . فإن الرحلة تتضمن أخبارا جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية لا يستثنى عنها أى دارس للجزائر خلال القرنين الماضيين . وبالإضافة إلى ذلك فإن محمداً الكبير ، الذى كان سنيا فى تأليف الكتاب كان شخصية جديرة بتسايط الأضواء ، لأنه تقلب فى مناصب مختلفة وشهد تطورات كثيرة وساهم بقسط وثير فى خلق تلك المناصب وتوجيه تلك التطورات . فقد شغل منصب باى ، واشترك فى الحرب ضد الأسبان ، وقاد بنفسه حملة ضد الصحراء لإخضاع أهلها إلى سلطة الداي ، كما عرف عنه أنه قد شجع العلماء والأدباء والطلبة وأقام المدارس والعمارات .

ولعلنا ندرك ، من ذلك كله ، أهمية هذا الكتاب وقيمة العمل الذى قام به الأستاذ محمد بن عبد الكريم . وإننا نأمل أن يوفق فى أداء رسالته لنفض الغبار عن الآثار التى ظن البعض أنها قد دفتت ، بينما هى فى الواقع ما تزال حية غنية لا تحتاج إلا إلى يد مخلصمة وقلم شريف وقلب ملىء بحب الإنسان .

الدكتور أ . سمر الله

٩ جوان ١٩٦٨

تقديم

هذه سابعة سبع مخطوطات^(١)، قد قفنا بتحقيقها، وبذلنا جهداً كبيراً في إخراجها من زوايا الإهمال ودهاليز النسيان، حتى يستفيد منها الجمهور، ويطلع على ماضي أجداده وبلاده، متوخين بذلك إفادة الطالب من محتوى المطلوب.. ولكل من تلك المخطوطات موضوع خاص، ووجهة نظر، من حيث معالجة البحث، وطريقة التأليف، وأسلوب التعبير.

(١) و موضوع هذا المخطوط، مرحلة معينة من مراحل التاريخ العياشي، وفترة محدودة من فترات الزمن، فقد عاشها المؤلف ليقيد حوادثها، ويحجم ما هو أجدر بالتعبير، فيطلع عليه من يأتي بعده من أبناء البشر. وذلك كله تلبية لبأى وهران محمد الكبير، ونزولا عند رغبته، وتربكاً بهذا التأليف إليه. ولم يأل المؤلف جهداً في تحديد الأيام وضبط الساعات، ولم يفته ذكر أماكن تلك الحوادث.. بأسمائها المعروفة بين أهلها: «أما بعد: فإن التاريخ من أجل المعلوم قدراً وأكملها محاسن وغزراً، إذ به عرفت قدماء الأمم، وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم.. أردت أن أذكر منه نبذة، أخدم بها قاصم المبتغين، ومدوخ المارقين، مقتصراً على ذكر خروجه إلى جمة القبلية عام تسمة وتسعين ومائة وألف، مقدراً بالسوانح مراحلها، ومبيناً منازلها ومناهلها».

(١) وهي: ١ - أنحاف النصارى والأديان، لحمدان خوجة. ٢ - وشاح الكتائب لفتود بن روية. ٣ - التحفة الرضية، لابن ميمون الجزائري. ٤ - رحلة أحمد بأى. ٥ - رحلة محمد الكبير بأى وهران. ٦ - بهجة الناظر، لمحمد القادر المشرقي. ٧ - القول الأوسط فيما حل بالغرب الأوسط، لأحمد الشرفاني.

(ب) وطريقة التأليف في هذا الكتاب تقليدية بحثة ، فهي تمتد على سرد الواقع وذكر الحوادث وكفى . فلا تحليل ، ولا تحليل ، ولا سبب ، ولا سبب . ولعل ذلك راجع إلى شخصية المؤلف من حيث ثقافته المحدودة ، وعقيدته الصوفية التي توحى إليه بأن كل ما كان أو سيكون ، فهو من الله جاء وإليه يعود .

(ح) أما أسلوب التعبير في هذا التأليف ، فقد جاء صورة مطابقة لمهر المؤلف ، معبرة لنا عن مدى ثقافته التي كانت قهية أكثر منها أدبية .

ويبدو لنا ذلك جليا في تطريز فقراته بأى الذكر الحكيم ، مثل قوله : « الحمد لله فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا »^(١) ، كما تتضح لنا عقيدته التسليمية في جملة الاعتراضية ، مثل قوله : « فإذا نظر العاقل هذا الجبل ، ظهر له ما يدل على قدرة الله تعالى ، التي لا يعجزها ممكن — فسبحان مكن الأشياء بقدرته ، ومظهر العجائب بحكمته »^(٢) . ومؤلفنا يكثر من الأسجاع الركيكة ويتكلف في الإتيان بها ، ولو أدى به هذا التكلف إلى التضحية بالمعنى المراد ، كما نجد — أيضا — يسوق ألقاظا عامية المبني ، أقليمية النزعة . ولم يرتب الكتاب أبوابا وفصولا حسبما جرت به عادات المصنفين القدامى . ولعل ذلك راجع إلى ضيق الوقت ، وقدان المهلة ، لأنه قد حبره أثناء سفره لا يسه فيه الترتيب والتنويب .. « لأنني قيدت هذه الأوراق في أثناء سفر ، ولم تصحني كتب .. أستعين بها »^(٣) .

(١) مقدمة الكتاب ، ص : ٢ .

(٢) ص :

(٣) ص :

ثم لم ينظر فيه فيما بعد ، لينفتح جله ، ويسهل عباراته ، ويقرب معانيه .
ومهما يكن الأمر ، فإن هذه الرسالة ذات أهمية كبرى من ناحية الحقائق التاريخية ، لا سيما منها الأقلية التي قلما نجد لها في غير هذه الرسالة .
وقد أحببنا أن نقدم هذا التأليف - وبالأحرى هذه المذكرة - إلى جمهور المثقفين لا سيما منهم المؤرخين الذين لا يودون أن يدعوا كبيرة ولا صغيرة تفوتهم دون أن يتلقوها على جميع جوانبها ، حتى تتكشف لهم حقايقها على ما هي عليه ، فيعمدوا النظر في معانيها ومبانيها وأسبابها ونتائجها .

التعريف بصاحب الرسالة

نسبه : هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال النلساني .

وظيفته : كان كاتباً ومستشاراً لمحمد الكبير بأى الإمالة الوهرانية ، ومبعوثاً له في المهمات الخارجية . فقد حدثنا أحمد بن علي بن سخنون في كتابه « النفر الجاني في ابتسام النفر الوهراني » أن محمداً الكبير - عندما كان يستعد لفتح وهران - وجه كاتبه أحمد بن هطال مع قاضي الحملة ، مصحوبين بهدايا إلى سلطان المغرب الأقصى ، ليسمح لهما بشراء ما يحتاج إليه الباي من أسلحة حربية .

ومن هناك ، توجه أحمد بن هطال إلى جبل طارق ، حيث وجد - في انتظاره - قنطارين ونصف قنطار من البارود قد اشترها الباي من الإنجليز ، فمباها وعاد بها إلى بلاده .

وبعد وفاة الباي محمد الكبير ، ظل ابنه عثمان بأى يشغل نفس المنصب

الذى كان مشغولاً به أبان حياة أبيه ، ثم لما توفى الباي المذكور ، أصبح ابن هطال كاتباً للباي مصطفى بن عبد الله المجنى رابع بآيات الإيالة الهمرانية .

وفاته : استشهد ابن هطال في معركة وقعت بين الأتراك وابن الشريف الدرقاوى وأنصاره وذلك في أوائل ربيع الأول سنة (١٢١٩ هـ) .

وكان دوران رحى هذه المعركة المشثومة في مكان يقال له « فرطاسة » يقع بين « مينا » و « واد العيد » ، وقد انتصر - في هذه المعركة - ابن الشريف الدرقاوى وأنصاره انتصاراً عظيماً ، فقتل عدد كبير من جنود الباي مصطفى . ومن بين هؤلاء القتلى ، كاتبا الحاج أحمد بن هطال وأبو عبد الله محمد التزلاوى .

وفي نفس المعركة ، يقول حسن خوجة التركي - في تأليفه « درالأيان » :

« فرطاسة » يومها ترى الجنود به ما بين قتلى وأسرى غير ناجينا
طالبى جاء بمجيش لا تقاد له به يريد لنا العدو باغينا
فلم يحقق له سعى ولا أمل بل جاء جنده صفر الكف با كينا
فاليوم لابن الشريف عز فيه على باى الأعاجم لولا الدين لا ديناً^(١)

هذا ما أمكننا أن نأتى به من حياة ابن هطال ، بعد أن بذلنا جهداً كبيراً في الاستقصاء عن أخباره في مظان المصادر التى بين أيدينا ، ولعل الله ينسأ في أجلتنا ، ويتيح لنا الفرصة حتى نستكشف في المستقبل ما غاب عن أعيننا في الوقت الحاضر ، و « لكل أجل كتاب »^(٢) .

(١) منه الآيات هل وزن البحر البسيط ، مخبوءة المروض ، مقطوعة الضرب .

(٢) لكل أجل كتاب : سورة « الرعد » ، الآية : ٣٨ .

أبى محمد الكبير

التعريف به

اسمه : محمد بن عثمان الكردى .

كنيته : أبو عثمان ، أبو على ، أبو محمد ، أبو أحمد ، أبو الفتوحان ،

أبو النصر ، أبو المواهب ، أبو الربيع ، أبو القتح .

لقبه : الكبير ^(١) ، الأكل ^(٢) ، المجاهد المنصور .

أمه : جارية ، اسمها زائدة ، أهداها لأبيه مولاى اسماعيل سلطان المغرب

الأنصى ، لمودة كانت بينهما . وأما أخوه محمد الرقيق (أبو كايوس) فأمه حرة ،

اسمها خديجة وأبوها من أشرف (المدينة) يقال له : محمد بن عيسى اللداني .

أبوه : أبو إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم الكردى ، كان خليفة على

مليانة ، ثم ارتقى فأصبح بابا على تيطرى وأحوازها . وكان أبى تيطرى محترما

لدى الأتراك ، ومعتبرا عند باشواتهم ومفضلا على سائر البايات . وذلك لأن

تيطرى أول ناحية خضعت للأتراك بعد مدينة الجزائر .

وتوفى عثمان بمدينة « معسكر » ودفن بها سنة (١١٧٠ هـ) بعد ما مكث

في الحكم تسعة أعوام ^(٣) .

دور محمد الكبير في الحكم

كان أبوه عثمان الكردى - مرتبطا ببرى الصداقة مع أبى إسحاق إبراهيم

(١) لقبه بالكبير إسن إكراما له عندما فتح مدينة وهران .

(٢) كان يلقب بالأكل منذ سفره ، وذلك لسرته .

(٣) ويقول فورنوس . إنه قتل على يد أولاد نايل في غزوة قام بها ضدهم عندما أخذوا

من طاعة الأتراك أنظر (المجلة الأنزيبية) لسنة ١٨٥٧ ، ص ٤٠٠

الملياني ، وكان هذا الأخير قائدا على « مليانة » ، ولما توفي الباي عثمان تسكنل ابراهيم بمائلته واعتنى بولديه ، محمد الكبير ، ومحمد الرقيق (بوكابوس) .

ولما توسم ابراهيم في محمد الكبير نشاطا متزايدا وشجاعة صادقة وذكاء سادا ، أحب أن يوطد العلاقات بينه وبينهما ، فأصدر إليه ، وزوجه بانيته ، ولما ارتقى ابراهيم وبن عن الإيالة النورية ^(١) أخذ معه صهره محمدا الكبير وعينه قائدا على « قليته » سنة (١١٧٨ هـ) ، وكانت مرتبة هذا القائد لها الأولوية في الإيالة النورية ، كما أن مرتبة قائد « مليانة » لها الأولوية — أيضا — في الإيالة الجزائرية ، ولما وجد ابراهيم باي محمدا الكبير قد قام بواجبه أحسن القيام ، وأظهر براعته في الحكم ، من إصابة التفكير ، وحسن التسيير : عينه خليفة له سنة (١١٨٢ هـ) وبعد مدة قليلة أشركه في جميع حكومته ، ومنحه إدارة جميع الناحية الشرقية من الإيالة النورية .

وفي سنة (١١٨٩ هـ) تحرك الأسبان لنزو الجزائر بأسطول عظيم تحت قيادة « الارلادى أوريل » فشارك محمد الكبير في الدفاع عن الجزائر بمجيشه الباسل ، وأبدى — أبان المعركة — شجاعة عديمة النظير ، وأذاق الجيوش الأسبانية مرارة الحمام ، فشكره الداي (محمد عثمان باشا) شكرا جزيلا ، وأثنى عليه الناس أجمعون .

وفي أوائل هذه السنة ، توفي ابراهيم باي ^(٢) فطلبت الرعية من الداي أن

(١) كان مقر الباي للإيالة النورية — لمبان احتلال الأسبان لمدينة وهران — ينتقل من مستنق ، إلى مازونة ، إلى قلعة بني راشد ، ثم معسكر ، ولما خضعت وهران للمرة الأولى وقادرها الأسبان ، انتقل إليها مقر الباي مصطفى أبى اللاغم ، ولما استرجعها الأسبان ، نقل مقره إلى مدينة مستنق ، ثم فتحها الباي محمد الكبير ، ونقل إليها مقر الأيالة نهائيا .

(٢) وقع اختلاف كبير ل تاريخ تولية الحاج خليل بن المورخين ، وقد اعتدنا على (التمر الجمانى) لأحمد بن سحنون .

يعين مكانه عمدا الكبير بايا على الإيالة الترية . وكاد الداي ينفذ رغبة الرعية ،
لولا تعرض أحد الأغنياء — اسمه الحاج خليل — لابتياح هذا المنصب من الداي
بشمن باهظ وضع في خزانة مال الدولة حسبما جرت به العادة آنذاك ، وهكذا
بقى عمدا الكبير يشغل منصب خليفة ، مترقبا فرصة متاحة فيرتقى إلى
مرتبة باي .

وفي سنة (١١٩٢ هـ) ^(١) اجتمعت الطائفة الدرقاوية من جديد بموضع يقال
له «عين المحوت» قرب «تيسوشنت» وقررت الخروج عن دولة الأتراك ، فنهض
إليهم الحاج خليل باي الإيالة الترية ، وفي أثناء سيره إليهم حدثت عاصفة شديدة
شتت شمل عسكره ، ولجأة توفى الباى دون أن يعرف سبب لوفاته ، فاستجاب
الداي لرغبة الرعية ، وعين عمدا الكبير بايا على الإيالة الترية ، فنقضى على الثورة
الدرقاوية وغيرها .

وبمجرد جلوسه على كرسى الحكم وتعيينه بايا ، شرع في إصلاح شؤون
الرعية ، والسهر على مصالح المباد وتنظيم البلاد ، فراح ينشر الأمن ويؤلف
بين قلوب الناس ، وبادر باخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركي ، مثل قبيلة
« أولاد على بن طلحة » وقبيلة « الحشم » وقبائل « فليقة » و « حيان »
و « عمور » وجميع قبائل « بنى راشد » . وبعض القبائل كانت مقيمة على الحدود
الترية تحترف الاصوصية وقطع الطريق على المسافرين ، فاقصر على الجميع
وأخضعهم للحكم التركي وملأ خزائنه بما أدوا له من الضرائب ، كما أدخل بعضهم
في « الخزن » ^(٢) فاصبحوا له منقادين ، ولحكومته مخلصين . وأم غزواته

(١) اعتمدنا في هذا التاريخ على كتاب (سعد السود) للزاري ، غلطوا بخزائنا .

(٢) هم العرب الجزائريون والوالون للدولة التركية ، والمويدون لسياستها .

التي قام بها داخل البلاد ، هي غزوة الجنوب الصحراوي الجزائري التي جهز لها جيشاً عرمرماً ، ونزح به من « معسكر » ماراً بـ « جبل عمر » و « البيضاء » و « أفلو » و « العاوية » إلى أن وصل مدينة « الأغواط » حيث دخلها بقوة هائلة ، ونشاط متزايد ، فأنقاد له جميع القبائل التي بضواحيها بما فيها « مزاب » ، واعترفوا كلهم بدولة الأتراك في القطر الجزائري ، ورضوا أن يؤدوا لها الضرائب السنوية عن طيب نفس .

وقد رقت هذه الغزوة (سنة ١١٩٩ هـ) وهي التي حققناها ، ونحن بصدد التقديم لها

ثم أخذ الباي يتهاى لفتح مدينة وهران واسترجاعها من الإspanيين بعد ما أخذوها قهراً من الزيانيين .

مدة مكث الإspan بـ وهران

في مستهل ربيع الثاني سنة (٩١١ هـ) سقط برج المرسى الكبير في أيدي الإspanيين ، وفي آخر المحرم من سنة (٩١٤ هـ) تم الاستيلاء على مدينة وهران بأكملها ، وفي صبيحة يوم الجمعة من السادس والعشرين من شهر شوال سنة (١١١٩ هـ) فتحها مصطفى أبو الشلائم باي الأيالة التبرية على عهد محمد « بكداش » باشا الجزائر بعد ما مكث بها الإspanيون مائتي عام وخمس سنوات . وقد أشار المحافظ أبو عبد الله محمد التقي في رجزه إلى تاريخ دخول الإspan وخروجهم من وهران ومدة مكثهم بها ، إذ يقول :

يا سائلا عما بـ وهران ظهر من أخذها وفتحها كما انتشر

أخذها الكفار بالثبات فيها روياء عن التقات

سنة أربع وعشرة مضت من بعد تسعمائة قد كملت

فأثان مع خمسة سنين عدة مكثها بأيدي الكافرين
ثم بدا العزم من الإله وجاءنا الفتح ونصر الله
فتحت سنة تسعة عشر ومائة بعد ألف تسير
في سادس العشرين من شوال صبيحة العشرين خذ مقال
عن يد من قد صير الجزائر جنة كل قاطن وزائر
محمد « بكداش » خير الدولة وحسن صبره على العولة

ثم استردها الإسبان قمرأ سنة (١١٤٣هـ) بعد ما مكث المسلمون بها
أربعا وعشرين سنة ، وإلى هذا التاريخ يشير محمد أبو راس المسكري في سينيته :
من بعد عشر وعشر ثم أربعة عادوا إليها فمرت أعين الناس

استعداد محمد الكبير لفتح وهران

وفي فاتح صفر سنة (١٢٠٥هـ) قرر محمد الكبير أن يسترد مدينة وهران
من الاسبانيين ، وأرسل إلى الهادي يشاوره في الأمر ، فأذن له الهادي (محمد
عثمان باشا) في ذلك ، فنادى الهادي في الناس حي على الجهاد وأرسل إلى جميع
نواحي « معسكر » رسله ليخبروا رعيته بما عزم عليه وصمم في تنفيذه ، فأتته
الناس زرافات ووحدانا ، واجتمع لديه جمع فقير من أهل كل ناحية من نواحي
الإيالة القريبة في مدة أسبوع منذ انطلاق الخبير ، فجعل أهل تلمسان ، وقلية
وما جاورها من القبائل تحت قيادة ابنه عثمان ، وتسكفل بقيادة أهل مازونة
ومستغانم ، وقلعة بني راشد ، وقبائل نواحي الشرق محمد بن إبراهيم (صهر الهادي) .
وجعل القسم الأكبر تحت قيادته ، ثم اتفق مع علماء « معسكر » وضواحيها
أن يجمع الطلبة والمدرسين وقراء القرآن بقصد الرباط « جبل المائدة » على مقربة
من مدينة وهران ليثبطوا همة الاسبانيين ويحولوا بينهم وبين ما يأنسهم من الخارج

من أسلحة ومؤن ، وكان عدد الطلبة يزيد على خمسمائة طالب ، يرأسهم
 محمد بن الولود التريسي ، وكان الاستاذ محمد بن عبد الله الجلالى والاستاذ الطاهر
 بن حواء قاضى « معسكر » قد كلفهما الباي باعطاء الدروس للطلبة أثناء الرباط
 كما أمر عليهم محمد بن عبد الله الجلالى أيضا ، ثم أمر بإنشاء ثلاث طواحين به
 « مسرقين » - خاصة بطلبة جبل المائدة ، وسهل لهم جميع ما يحتاجون اليه ،
 ومنع إنشاء المدارس فى الولاية ماعدا جبل المائدة ، فإنه قد رخص فى إنشاءها
 هناك ، وأمر مناديا ينادى فى الناس : أن كل من سكن جبل المائدة يعنى من
 دفع الضريبة . وإلى المرابطين بجبل المائدة (افرى) يشير أحمد بن سحنون
 فى أرجوزته « النثر الجانى » إذ يقول :

فكم بنى فى النثر من أشراك لأهل وهران ذوى الإشرار
 وقرر المرابطين فيه مرتبا للكل ما يكفيه
 وهى إذ ذاك بلاد كثر لم يحفظ من يقصدها بالنظر

.....

ورتب المرابطين فى الجبل من كل حبر عن هوى الموت جيل
 وكل مقدم هام وبطل منذ بدا بادی الضلال وبطل
 مؤمرا لشيخنا الجلالى محمد الاحق بالاجلال

وراح الباي يعزز قواه بشراء الاسلحة من مختلف الأقطار ، فاشترى من
 الانجليز بمجبل طارق عددا من المدافع ، وكية كبيرة من البارود والرصاص ،
 واكثرى سفنا من الإفرنج ليحملها بدما ضمن لها الأمان والنجاة عبر البحر ،
 ثم بث أحمد بن هلال مع قاضى الحملة إلى المغرب الاقصى ليشترى سلاحا

من هناك ، وبست له قبائل ازواكية كبيرة من البارد الذي كانوا يصنعونه في جبالهم ، ثم أمر بصنع الربات لجر المدافع ، وعبد لها الطرق التي بين مسكر وهران وأطلق سراح جميع المساجين ليكونوا عوناً له على ما هو عازم عليه . — وفي أثناء استعداد محمد الكبير للهجوم على مدينة وهران ، إذ بزلزلة تحرك المدينة من أقصاها ، فهدم معظم بنيانها ، ولقي عدد كبير من السكان حتفهم ، واستد تيار هذه الزلزلة إلى مدينة مسكر ، إلا أنها لم تصب إلا بخسارة طفيفة جداً . وكانت زلزلة وهران حافزاً استعجالياً ل محمد الكبير ، فتحرك من مدينة مسكر يوم الخميس في الثالث عشر من شهر صفر سنة (١٣٠٥ هـ) بخمسة آلاف مقاتل متوجهاً إلى مدينة وهران بقصد فتحها .

وبعد هجومات متوالية على أسوار المدينة ، قام بها جيش الباي في غضون أسبوعين : قرر الباي أن يبقى جيشه هناك محاصراً للبلاد بالنار متنبهاً في الدقة والتنظيم ، حتى لا يتسرب للمدينة من الخارج شيء من المؤونة أو العتاد .

وفي أثناء هذا الحصار ، توفي داي الجزائر محمد عثمان باشا خلفه حسن الخرناجي الذي كان قد تبناه الداي ، ومنذ ذلك الحين أعطي لقب « باشا » . وقد دام هذا الحصار إلى أول محرم سنة (١٣٠٦) حيث رفع بسبب إبرام اتفاق صلح بين داي الجزائر و سلطان الأسبان ، ويتضمن الشروط التالية :

(أ) يسمح للأسبان أن يبنوا مؤسسة قرب « مرسى الكبير » بشرط أن يدفع — في مقابل ذلك — مائة وعشرين ألفاً من الفرنكات (بالصرف الفرنسي) للدولة التركية الجزائرية .

(ب) يسمح للأسبان بالنقاط المرجان من شواطئ الجزائر الغربية .

(ح) يسمح للأسبان بشراء ألف شحنة من البر (القمح) الجزائري .

(٤) بسج للأسيان - دون غيرهم من سائر الدول الافرنجية - بإرساء
أجنالهم في الرسى الكبير « شريطة أن يدفعوا للدولة التركية الجزايرية
ثلاثا وستين فرنكا .

(هـ) تسلم مدينة وهران إلى الدولة التركية الجزايرية بجميع ما فيها من
سلاح وما عليها من بناء مثلما كانت عليه يوم خروج مصطفى أبى الشلاغم
سنة (١١٤٣ هـ) .

(و) إخلاء مدينة وهران من جميع الخوذة الإسبانيين في فترة لا تتجاوز
سنة أشهر من يوم تحيير عقد الصلح .

وجاء في كتاب « طلوع سعد السعود .. » : « . . ودام حصاره لما باقتل
الصادر منه ، ومن جنوده وشدة صواعقه ومدافعه وكوره وباروده ، إلى أن
فتحتها في أوائل المحرم سنة ست من القرن الثالث عشر بقتاله الذريع . ودخلها
في اليوم الخامس من رجب الزرد ضحى يوم الاثنين من سنته في فصل الربيع ،
وقد أقام النصارى بها في هذه المدة الثانية . . . ثلاثا وستين سنة ، وفي الأولى
خمسًا ومائتي سنة . . . واختلف في كيفية فتحها على ثلاثة أقوال ، فقال بعضهم :
إن الأمير فتحها عنوة ، ودخلها بعد الزوال . وقال آخر : إنها فتحت بشدة
الزلازل الحالة بها في كل حين ، ففر منها النصارى دون علم من المسلمين ،
ولما ذهب لما الطلبة ليلا للاختلاس والتجسس ، لم يجدوا أحدا عند أبوابها ،
ولا بها حس ولا حسيس ، فتسوروا عليها من جهة رأس العين ، ودخلوها
فوجدوها خاوية على عروشها ، ثم جالوها ، فرق أحدهم النار ، ورفع صوته
بالأذان ، وكان جبير الصوت ذا تطريب والحنان ، فسمع المسلمون ذلك وتجمعوا
من الطلبة بأنفسهم ، فأنوها والأمير المؤيد بالنصر أمامهم ، فألقوا الطلبة مقبلين



على ثلاثة القرآن ، فدخلها الأمير - رحمه الله - في أمن وأمان
وقال المحافظ أبو راس : « إن أمير المؤمنين السيد محمد بن عثمان بن أبي طالب
النخعية وتلدان لما ضايق وهران أشد التصديق ، سأل منه العسارى السلم والنوثق
ورادود عليه ، فأعطاهم الأمان على أمنتهم وأفسهم من غير امتنان ؛ فذهبوا
منها وتركوا كل ما فيها للأمير فأخذهم منهم بالقيمة ، وقيل تركوها خاوية والأول
منها هو الصحيح » (١) .

وبعد فتحه لوهرا ، توجه إلى الجزائر حيث استقبله الداي حسين باشا
استقبالا عظيما ومنحه « ريشة الانتصار » . ثم عينه بايا على مدينة وهران وجميع
الإيالة النخعية بما فيها تلسان وتيطرى ، وعين ابنه عثمان خليفة له على ضواحي
العرب ، كما عين ابنه عمداً قائداً على قبائل « فليقة » . وقبل أن ينتقل الباي
إلى وهران ليخضعها سكتا ، جمع العلماء ليستشيرهم في شأن سكان وهران
الذين كانوا أعوانا للأسيان وحربا على المسلمين فاتفق الجميع على أن يسمح لهم
ما فرط منهم رؤسهم ، فأرسل إليهم في الحين القاضي عبد الله بن حواء ،
وسى أحمد بن سحنون الكاتب بالجامع الكبير ، وسى محمد بن فريجة ،
فأمروهم وعادوا مصحوبين بأربعين شخصا من سكان مدينة وهران كمشايخ
لإخوانهم هناك .

فاستقبلهم الباي استقبالا حسنا ، وعفا عنهم وصنع عن جميع زلاهم ، ثم
انتقل بأهله وحاشيته إلى مدينة وهران حيث اتخذها سكتا ومستورا إلى أن وافاه
الله أجله ببلدة « صبيح » سنة (١٢١٣) وهو في طريقه إلى مدينة الجزائر ، وقد
دام حكمه عشرين سنة بايا مستقلا ، وسبعة أعوام خليفة مفوضا ، فرحم الله

(١) « ملوك سعد السعدي أخبار وهران » غطولة بخزانة .

الباى عمداً الكبير رحمة واسعة ، وأسكنه جوار الشهداء الأبرار والصلحاء
الأخيار . . . (١)

أعماله وإنجازاته

لم يسع لنا الوقت باستقصاء جل ما صنعه هذا الباى البار من حسنات
شهدت بها أعداؤه فى الدنيا والدين ، ولعل ذلك كله نتمركه لدراسة منحصصة
لشخصية هذا الباى العظيم .

أما فى هذه المقدمة ، فسكتفى باقتطاف أقل من القليل من تلك
الأعمال الخيرة .

(١) اعتناؤه بالفقراء والمساكين

طرد الجماعة باختران الحبوب وقت حصادها وتفريقها على المحتاجين عند
الحاجة ، وكان ملابخو قصره بـ « معسكر » رهن إشارة الفقراء والجامعين
وكان يوزع بنفسه الألبسة على المرأة من الرعية ، لا سيما وقت الشتاء .

وكان يداوى بنفسه المرضى الفقراء ويالجهم ويتألم لوجعهم ، وكان يوزع
الأموال على الفقراء والطلبة والتأمين على خدمة المساجد فى كل مناسبة عيد ،
أو موسم ، أو فرح ، وكان يبعث فى كل سنة بهدايا ثمينة إلى الحرمين الشريفين
(مكة والمدينة) مصحوبة بمبد خصى لخدمة مسجد المدينة المنورة .

(ب) حرصه على الثقافة والثقائين .

لقد كان يبنى بالثقافة ويعب للثقافين ، لذلك بنى المدارس لطلبة ووفر لهم
المؤن ، وهيا لهم الوسائل التى تساعدهم على المضى فى طلب العلم واكتناز المعرفة

(١) دفن الباى محمد الكبير « بمدرسة خنق النطاح » فى مدينة وهران . ولأوائل الاحتلال
أخذ جنود فرنسا مكان هذه المدرسة حماما يستحمون فيه . ولهذا الدب لمس قبر محمد الكبير
ومم ، ولم يبرف بالضبط مضجعه الكريم حتى الآن . وتعرف هذه المدرسة — فى
وقتنا الحاضر — بـ « جامع الباى »

جاء في « سعد السعدي .. » : « .. وكان يحب الطلبة ، ولذلك بنى لهم المدرستين : الأولى : « المسكر » والثانية : « وهران » . حكى أنه لما رافقت له الشكاية من أهل وهران بالطلبة ، وتكررت عليه ، أمر بإخراجهم من وهران لينظر في ذلك ، فخرج الطلبة منها وانصرفوا بكلمهم عنها ، وهو ينظر إليهم من عله ، وقلبه متعير في الأمر بكلمه ، فلم ير من لحقهم ورأى النساء درجن على الأسطح ، وأعينهم شاخصات نحوهم ، أسفاً عليهم ، وفي غم من أهل الصلاح ، فجاء آفته السيد قدور الكبير بن اسماعيل البختاوي ، وقال له : ياسيدي لا يليق بك ولابنا طرد الطلبة ، الذين يدعون ربهم بالعفة والعشى ، ويتلون كتابه الرزق ، وإنما الأليق أن من فل ذنباً يستحق به العقاب عوقب ، ومن لا ، فلا . والذين اشتكوا لك بهم بأنهم أهل افتيات ، عليهم يحفظ أنفسهم وأهلهم ثم ادعوه عليهم بنير إثبات . فقبل منه هذا الكلام ، وفرح به كثيراً وأمر بردهم لهم ، فرجعوا بعد أن خرجوا منه ولما استقروا بمواضعهم ، واشتغلوا بمصانهم ، ذهب إليهم على فرسه بشواشه ، متجشراً في سيره ، وحين وصل إلى محلهم ، دفع لهم مالا كثيراً زيادة بقصد التبرك بهم . وقال لهم : أيها الطلبة اشتغلوا بالقراءة وكفوا أنفسكم عن الأذابة ، فإني في المدينة من يحبكم ، إلا ثلاثة في المحبة سواء : وهم : أنا ، وآفة قدور بن اسماعيل البختاوي ، والنساء » انتهى النص .

وكان يعظم العلماء ، فشيدهم المساجد ورتب لهم مرتبات زيادة على المنح والمدايا التي يفاخهم بها بمناسبة الأعياد والأفراح ، وما يمت إلى أمثال ذلك . ويكفينا دليلاً ما أقامه علماء عصره من كتب قيمة في أخلاقه المرضية ، وسيرته الحمودة ، مثل كتاب « عجائب الأسفار » لحمد أبي ران المسكري ،

(٢)

وكتب « النثر الجاني .. » لأحمد بن علي بن سحنون ؛ وكتاب « الرحلة القسرية في الأخبار الحمدية » لمصطفى بن عبد الله بن زرقة ، وغير ذلك من التأليف التي تدل على إحسانه المستمر لمن ألّفها وبده الطولي على من صنفها . وكان يجمع العلماء ويشاورهم في الأمر وينزل عند رغبتهم .

أما الشعراء ، فقد كان يمازيهم أحسن الجزاء ويمجزل لهم العطاء ، ولنذكر من ذلك على سبيل المثال ، أنه أهدى إلى الحاج أحمد القرومي مائة محبوب ذهباً ، وأعطاه ألبسة تساوى خمسين محبوباً عندما مدحه بقصيدتين ، أولاهما في تشييده للمسجد الكبير بمدينة معسكر ، وثانيتهما بمناسبة فتحه مدينة الأغواط ، وأحوازاها . وقد ذكر ابن هظال كلنا القصيدتين برمتيهما في الرحلة التي نحن بصدد التقديم لها ، وكان يشجع الأدباء والكتاب بصفة عامة ، فقد منح أحمد بن سحنون مائة دينار ذهباً عندما اختصر كتاب « الاغانى » لأبي فرج الأصبهاني . ومنحه أيضاً حسين ديناراً ذهباً جزاء عمل قام به ، وهو انتخاب ألقاظ طيبة من القواميس ، ومن أجل هذا كانت تتهاطل عليه المدائح الشعرية والنثرية ، فيأتى أصحابها إليه خصاصاً ويرجعون بطاناً .

ومن يتصفح الكتب التي ألّف في سيرته ، يجدها زاخرة بالقصائد الشعرية ، والأسجاع النثرية . ولم يكن محمد الكبير يتقبل الإنتاج الأدبي أو العلمي من المقربين به إليه فحسب ؛ بل كان يبحث على هذا الإنتاج ، ويقترح مواضيع تناسب الظروف ، وتمودد على الوطن وأهله بالخير الميم ، فقد كان - أثناء غزوة وهران - رئيس الطلبة مصطفى بن عبد الله أن يجمع له الأحاديث الواردة في الجهاد . ولم يترك هذا البار فرصة تقوته في نشر الثقافة وإنماء الأفكار . وكان يملك مكتبة ضخمة ، تحتوي على مختارات من شتى المخطوطات ،

وكان لا يكتفى بالخطوطة الواحدة في خزائنه ، بل يأمر بنسخ عدة منها لتكون
في متناول أبدي جميع المثقفين ، وكان يذل الأموال الطائلة في الخطوط
النحسية ، فيشترها ويضعها في خزانة القصر أو يحبسها على طلبة المدارس وعلماء
المعاهد ، وكان يبحث عن العلماء حينما كانوا ، ويتقصى آثار المثقفين أنى بانوا .

وكان مولدا بالمطالعة وقت فراغه في شؤون الرعية ، وكان قتها أديبا
مطلعا على تاريخ العرب وأيامهم ، وكانت معرفته بالطب واسعة — على حد
تعبير صاحب النثر الجاني — وكان مفرما بمعالجة المساكين والفقراء اقتداء
بالنبي صلى الله عليه وسلم — حينما كان يعالج أصحابه رضى الله عنهم .

وكان يأمر بإحضار الأدوية بقصره لتوزع على الفقراء والمساكين عيانا
تحت إشرافه .

(ج) اعتناؤه بالتشييد والبناء :

جدد بناء مدرستين ببلسان وأرجع اليهما رونقهما ، وأعاد لهما حيسهما
القديم ، وزاد عليه ، فأخذت المدرستان تستعيدان قوتها العلمية من حيث
الدراسات الدينية والأدبية بعدما فقدتاها مدة طويلة .

وبنى في الجزائر العاصمة دارا جميلة وأنتهاشم سلمها لوكلائه وممثليه هناك .
وبنى في مستغانم قصرا جميلا ، كما شيد القصر الأنيق في مدينة « ممسكر »
— أيضا — وجعله منزلا جميلا جدا تحوط به حديقة غناء ، وأنشأ السوق العتيق
بـ « ممسكر » ، وألحق الفندق الجديد — الذى بناء هو أيضا — بحبس الجامع
الكبير ، ونقل الماء بالقنوات إلى المدينة الجديدة بـ « ممسكر » وقرية
سيد على بن محمد . وأنشأ مقبرة لمشاهير شخصيات ممسكر . ووسع جامع السوق
بـ ممسكر ، وزاد فيه رواقين من الأمام ، وجدد الجامع العتيق ، ووسع ساحته

وجلب اليه المياه ، وبني خمسة أحواض للوضوء . واستبدل منبره بمنبر أحسن من ذي قبل . ثم شيد المسجد الذي يحمل اسمه : « جامع عماد الكبير » . وقد نال هذا المسجد إعجابا كبيرا من الجمهور ، فراح الشعراء يتغنون به ويترنمون بزخارف جماله وينشدون قصائدهم الرثائية فيه :

ألق المصايفك رحل ركائبك بالمسجد المنشي بام عسكر
الحكم التشيد في شرفاته فقراء يحسن كالرياض الممطر^(١)

وحفر في وسط المسجد (جامع عماد الكبير) بئرا وطواها ليغترف الماء العذب منها ويوزع على أحواض المسجد . ثم اشترى أرضا تنز ينابيع الماء ثم أوصله في قنوات إلى أحواض المسجد الستة عشر . وبني مدرسة كبيرة وألحقها بذلك المسجد ، ثم حبس عددا كبيرا من أسفار الكتب على طلبة تلك المدرسة وأساتذتها ، وأنشأ حماما (حمام الأدم) حول ذلك المسجد وحبه على المدرسة والمسجد ، زيادة على مخبزة ودكاكين وأجنحة ، وكل مرافق الحياة التي كانت بمجولة لاحتياج الطلبة والأساتذة ، وجميع موظفي المسجد والمدرسة . وكان موظفو ذلك المسجد يتألفون من خطيب للجمعة وإمام للصلوات الخمس وأربعة مؤذنين وسماع وأربعة أساتذة ومقدم للطلبة . وصنع مشهدا لسيدى أحمد بن يوسف دفين مليانة ، كما صنع مشهدا آخر لسيدى محمد بن عودة (بن خدة) . وبني قناطر وجسورا ، وعبد الطرقات ، وحسن أسوار معسكر . وبني في أوائل السنة التي فتح فيها وهران بالوضع الذي وقف فيه حصانه مسجدا للصلوات الخمس والجمعة ، ويعرف هذا المسجد عند سكان وهران بـ « جامع بناصف » لكونه كان به وكيلا . ثم بنى في السنة التي تليها (١٢٠٧ هـ)

(١) انظر القصيدة بأكملها في الرحلة التي نحن بصدد التقديم لها ، ص :

قلة « البرج الأحمر »^(١) . وبني مدرسة « بخنف النطاح » التي بها ضريحه . وشيد الجامع الأعظم المعروف بـ « جامع الباشا » ، لأنه أمر ببنائه حسن باشا ، كما تكفل بصاريف بنائه أيضا .

مكاته بين رؤساء الدول

كانت علاقاته مع رؤساء الدول الإسلامية حسنة جدا ، فقد كان يهادى معهم الهدايا سرا ، ويث من استنجد به لاسيا رؤساء الأقطار الثلاثة : مصر ، وتونس ، والمغرب . فقد لجأ إلى مدينة معسكر عبد الرحمن ولي العهد ابن مولاي محمد سلطان المغرب ، فرحب به محمد الكبير ، واحتفل بمقدمه احتفالا عظيما ، وبعد مدة مر بمدينة معسكر مولاي يزيد أخو عبد الرحمن السابق قاصدا بيت الله الحرام ، فاستقبله الباي محمد الكبير استقبالا حارا ، وجعل تحت تصرفه « قصر البستان » بما فيه ومن به . وبعد وفاة مولاي محمد خلفه ابنه يزيد المذكور فتنكر لسيرة أبيه وأخذ ينكل بحاشيته ، فنه من قتل ومنهم من ثقي ، ومن بين أولئك المنفيين إحدى الشخصيات المعتبرة يقال لصاحبها ابن خدة الذي توجه ضوب مدينة معسكر حيث وجد من الباي محمد الكبير أكبر معين وأحسن رفيق ، فاستقبله استقبالا حسنا ووفر له

(١) جاء في « طالع سعد السعود » : « ثم هذا الباي .. أمر ، بالحام من الله تعالى في اليوم الحادى والعشرين من فتحه لوهرا ن — بهدم الأبراج الموالية للهر ، وهى : برج مرجاجو ، وبرج رأس الدين الكبير والصغير ، و برج الوزير ، و برج فرناند ، و برج كارلوس وأشباهها من الأبراج الموالية للهر ... »
وغرضه بذلك رفع الضرر عن المسلمين ، حسا لمادة النصارى ، فإن الباي أبا السلاخ لما فتحها أولا ترك الأبراج بلا هدم ، ولما رجع لها النصارى كان أول ضرر حصل للمسلمين من تلك الأبراج ، فلذلك أمر — رحمه الله — بهدمها .

كل ما يحتاج إليه من مؤونة وجوار وخدام وهم جرا . .

وقد اختلف - كذلك - أحد خلف باى تيطرى مع رئيسه فالتجأ إلى مدينة معسكر فوجد في الباي الكبير رغبته المنشودة، إذ استجاب له وهون عليه ، ثم عينه خليفة على ضواحي معسكر . وكذلك فر حسن باشا ابن باى قسنطينة إلى مدينة تلمسان فوقف الباي محمد الكبير بجانبه وأمانه في كل إما يحتاج اليه وتوسط لإلحاق عائلته به . ولما بمالعين إذا قلنا : بأن هذا الباي كان قبله للسنتيين وكية للسنتجدين ، يأخذ بيد الضعفاء والمساكين ويقتل عثرات من أطاح بهم الدهر القدار ، وكان حسن باشا يعظم هذا الباي ويعترف له بشجاعته وقبله وفطاته ، ويقدمه على جميع بايات القطر ، رغم حساد قد كانوا يشون به إلى الباشا . وكان بايا قسنطينة وتيطرى يعتبران من أصدقائه الخالص . وكذلك كان باى تونس ، وسلطان المغرب في محبتها له وصادقتهما سواء . ولعل ذلك ناتج عن كرمه السيل ، فقد حدثنا صاحب « الثغر الجمانى » بأن هذا الباي كان يأتى إلى الجزائر مرة في كل ثلاث سنوات لدفع الضريبة (الدنوش) المجمولة على الإيالة القرية ، وكان شعب مدينة الجزائر ينتظر بفارغ الصبر وقت قدوم هذا الباي الكريم . وكان مجموع ما يمه لبيت المال - دون الهدايا والتبرعات - مائة ألف سلطاني ذهباً ، ومثلها يوزعها على الشعب . هذا زيادة على ما يدفعه من قطع الحيوانات ، وكية الجبوب والأقوات ، وعدد من العبيد والخيول السومة ، التي يهديها إلى ذوى الوظائف السامية ، وكان يعطى مالا كثيرا لخدام المساجد ، وبمجرد وصوله إلى مدينة الجزائر بعم الفرح جميع البلاد . وكان يوم دخوله إلى الجزائر يعد يوم عيد للفقراء والمساكين .

أوصافه الحسية وأخلاقه المعنوية

كان أسمر اللون ممتلئ الجسم ، مربع القد ، لا بالطويل ولا بالقصير ، وكان شجاعاً نبيلاً ، وفاضلاً كريماً سريع الغضب والرضى ، كثير الحلم والعلم ، قوى العزم ، والحزم ، محباً للسفر في أنحاء إياكته ، وكان فارساً كبيراً ، لهذا كان كثيراً ما يعتنى بتربية الخيل المتأنق ، فكان يوجد باصطبله أنواع مختلفة من الخيول ، وقد أمر ببذل الجهود في الاعتناء بها والحفاظ على نسلها ، وكان صياداً ماهراً ، لذلك نجده مولماً بتربية البزبان والصقور ، قال ابن هطل في الرسالة : « وقد اجتمع عنده ^(١) من الطيور الحسان المختلفة الأشكال والألوان ما لم يجتمع عند غيره من الملوك ، فكانت ترد عليه من كل مكان فيقبلها ويمجّزها عليها الجزاء الكثير ، الذي أوجب جلبها ، فلما كثرت عنده صار يختار العوادم ويقدمها ويفضلها على غيرها » ^(٢).

وقبل أن أضع نقطة النهاية لهذا التقديم ، أود أن أنبه القراء إلى شيء واحد طالما تناسيناه مع أنه يجب الاعتناء به ، والتضحية بالوقت الثمين فيه البحث عنه ، ذلك هو التراث الوطني مهما كانت قيمته العلمية ، وكيفما كان شكله ومبناه ، فللأشجار ، وللزروع أصول ، وللشعوب أجناس ، وللأجداد تاريخ ، وعلينا نحن الأحفاد إبرازة للعيان ليبقى عبر الأجيال ، فإن كان خير آتقنياته وانفخنا به ، وإن كان شرراً عرفنا أسبابه ، ولستنا بمسؤولين عنه .

محمد بن عبد الكريم

(١) عنده : الضمير يعود على الباي محمد الكبير .

(٢) رحلة الباي محمد إلى الجنوب ، ص .

ملاحظة هامة

النسخ المعتمدة في تاريخ الرسالة

أولاهما : مخطوطة خاصة توجد بمخزائنا ذات حجم صغير مربع ، خطها منربى صمنى واضح لونه أسود ، أوراقها بيضاء ، في كل صفحة منها ٢١ سطراً . وهذه النسخة بمجولة السكاتب ، ويبدو أن ناسخها قد تصرف فيها ، ولم يراع أمانة النص . ولهذا تكثر فيها الاسجاع الركيكة التي تفل في النسختين التاليتين - نسيا - ، وقد رمزنا لها بحرفي (نج) أى نسخة خاصة .

ثانيتها : مخطوطة بالمكتبة الوطنية (بالجزائر العاصمة) تحت رقم ١٦٤٣ . وهى - كذلك - ذات حجم مربع صغير ، خطها منربى صمنى واضح جيد ، لونه أسود احمر ازرق ، أوراقها بيضاء مشوبة بمخضرة ، في كل صفحة منها ١٢ سطراً . وهذه النسخة فرغ من قتلها محمد بن البشير « آقراى » التلمسانى في ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٠٢ هـ . وقد رمزنا لها بحرفي (نج) أى : نسخة جيدة .

ثالثتها : مخطوطة بالمكتبة الوطنية (بالجزائر العاصمة) أيضا رقم ١٦٤٤ ذات حجم مستطيل صغير ، خطها منربى صمنى ردى . ، في كل صفحة منها ٢١ سطراً . وهذه النسخة يبدو أنها بمجولة السكاتب ، رغم أنها اختتمت بنفس العبارة التى ختمت بها النسخة رقم ١٦٤٣ . وذلك لأنها مختلفان في شكل الخط اختلافا كبيرا .

وعلى كل فإن إحدى النسختين ليست بخط محمد بن البشير « آقراى » قطعا لا ريب فيه .

منهاجنا في تحقيق الرسالة

كان اتجاهنا لتحقيق هذه الرسالة على النحو التالي :

- ١ - محافظتنا على النص ، فلم نغير كلمة نددت عن المعنى المراد ، ولم نبدل حرفا قد وضعه القلم في موضعه دون أن ننبه عليه في حاشية الرسالة .
- ٢ - شرحنا لبعض المفردات اللغوية التي يستعصى فهمها ، من حيث مدلول معنيها : العربي والعجمي .
- ٣ - اعتناؤنا بالآيات الشعرية من حيث وزنها وقافيتها والبحث عن منشديها
- ٤ - ارجاعنا كل آية من آي الذكر الحكيم إلى سورتها وتحديد رقمها .
- ٥ - ترتيبنا لقهرس مراجع المقدمة والرسالة حسب الحروف الهجائية .
- ٦ - ترتيبنا لقهرس الموضوعات الواردة في المقدمة والرسالة ، حسب الحروف الهجائية .
- ٧ - ترتيبنا لقهرس الاعلام والالفاظ والكنى الواردة في المقدمة والرسالة .
- ٨ - ترتيبنا لقهرس أسماء الأماكن والبلدان الواردة في المقدمة والرسالة ، حسب الحروف الهجائية .
- ٩ - تخريجنا لقوافي الآيات الشعرية الواردة في المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب الحروف الهجائية .
- ١٠ - تخريجنا لآي الذكر الحكيم الواردة في المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب السور .
- ١١ - ترتيبنا لقهرس القبائل والأجناس الواردة في المقدمة والرسالة ، حسب الحروف الهجائية .
- ١٢ - ترتيبنا لأسماء الكتب الواردة في المقدمة والرسالة ، حسب الحروف الهجائية .
- ١٣ - تخريجنا للألفاظ الأعجمية والإقليمية الواردة في المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب الحروف الهجائية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

قال الشيخ الفقيه ، التحرير النبيه ، لسان الدولة ^(١) ، وفارس الجولة ^(٢) -
أبو العباس السيد أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلساني - كثير العلم
ومحبب الأقوال ، رضى الله عنه .

الحمد لله « فائق الإصباح » ^(٣) ، وجاعل الليل - سكنا « ^(٤) » ، ومخترع
الأرواح ، ومصير الأشباح لها وطنا ، ومفضل الإنسان بالنطق المبلغ إلى كل منى .
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، أفضل من سافر ومن قطننا ^(٥) ، وعلى
آله [وأصحابه ^(٦)] . ما حرك ريح الصبا غصنا .

(١) لسان الدولة : كاتبها . وقد كان - بالفعل - كاتباً لمحمد الكبير .

(٢) فارس الجولة : خواص الممارك . وقد خاض عدة معارك إلى أن استشهد
في إحداها .

(٣) فائق الإصباح : شاق عمود الصبح عن ظلة الليل ، أو عن يياض النهار ،
أو شاق ظلة الإصباح ، وهو النبت الذي يليه . والإصباح - في الأصل
- مصدر أصبح إذا دخل في الصباح ، سمي به الصبح . وقرئ - أيضاً -
بفتح على الجمع .

(٤) سكنا : تسكن فيه الخلق من التعب . وجلة « فائق الإصباح » ، ويجعل سكنا .

اقتباس من آي الذكر الحكيم : سورة « الانعام » الآية : ٩٦ ، .

(٥) هكذا - بألف قائمة - في جميع النسخ .

(٦) الزيادة من نسخ .

أما بعد : فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، وأكملها بحاسن^(١) وغزرا .
فهو أحد ما يطلق عليه علم الرية . كان أحق^(٢) ما تنفق فيه الدخائر السنية .
وتصرف إليه المهبج الزكية^(٣) . إذ به عرفت قدما الأمم ، وبه حفظت مكارم
أخلاقهم والشيم . فاشتغلت به علماء كل قطر ، وصنفت فيه أدياء كل عصر ، حتى
ملئت منه الخزائن ، وكثرت [فيه]^(٤) الرسائل والدواوين . فبعضهم أخذ
بطرف كفيه^(٥) ، وآخر اغترف بسكنتا يديه . وبعضهم^(٦) أكثر على
التمهل ، وشرب شرب عب وعلل . ومع ذلك^(٧) ترى كل واحد يمدح بضائته
ويجلبها [ويفضل بنات فكره ويجلبها]^(٨) ، ولكل وجهة هو موليها .

[وقد]^(٩) أردت أن أذكر منه نبذة ، أخدم بها [حضرة]^(١٠) قلمع
المبغضين . ومدوخ المارقين ، من جمع الله له خصال الشرف والمجد ، وموجلت

(١) نخ : « عاسنا » ،

(٢) نخ . نر : « حقا » .

(٣) نخ : « الذكية » .

(٤) الزيادة من نخ .

(٥) نخ . نر : « كفه » بصيغة المفرد .

(٦) نر : « وبعض » .

(٧) العب : شرب بلاثنفس . الملل : شرب بعد شرب بثنفس . وفي نخ :

« وشرب شرب من عب وعلل » .

(٨) الزيادة من نخ .

(٩) الزيادة من قلنا : لأن السياق يقتضيها .

(١٠) الزيادة من نخ .

الشكر والحمد: محل الجلال والمظلة والجود، المخصوص بنصر الآراء والبنود^(١) ،
 ذا الأيادي العميصة ، والمعن المغايمة ، والسياسة السديدة ، [والنعم المديدة]^(٢)
 الذى امتد على تفضيله الاجماع ، وجعل من فاك اليمن والسعدى درجة الارتفاع .
 كرم المستريح والماني ، الماحوظ برعاية الله^(٣) [السيد محمد باى ابن مولانا
 السيد عثمان باى]^(٤) ، رحم الله السلف ، وجعل البركة فى الخلف وخلف
 الخلف — آمين . —^(٥)

مقتصر على ذكر خروجه إلى جهة القبلة^(٦) ، عام تسعة وتسعين ومائة
 وألف .^(٧) مقدراً — بالسوانح —^(٨) مراحل ، ومبيناً منازل ومناهل .
 أقول — ومن الله أرجو للأمول — :

اعلم أنه لما اتفق نظر سيدنا المذكور — أطال الله بقاءه — وأيامه^(٩) ، وجعل
 النصر دائماً خلفه وأمامه — ، فى جهة القبلة [رأى] أنها ذات بلدان كثيرة ،
 وأعراب راحلة ومقيمة [غزيرة]^(١٠) . إلا أنها لم تنلها أيدي^(١١) السلاطة .

- (١) البنود : مفرد ما بند ، وهو العلم الكبير . والكلمة فارسية الأصل .
- (٢) الزيادة من نخ . (٣) نخ : « بعناية » .
- (٤) نخ . نر : « السيد محمد باى ، السيد مولانا عثمان باى » .
- (٥) نخ : « آمين » . فهو القوى المعين .
- (٦) القبلة : الجنوب . (٧) الموافق لسنة (١٧٨٥ م) .
- (٨) السوانح : هكذا فى جميع النسخ . التى بين أيدينا ولم أقف على هذا الجمع ، وإنما أعرفه عنه هو : ساعات وسباع وساع .
- (٩) الزيادة من نخ .
- (١٠) الزيادة من نخ (١١) نخ : « أبداً ،

ولم يكن منها لملك مصلحة ولا منفعة [معينة] ^(١)، كأنها أمة أبقت ^(٢) من أهلها، أو حرة نشزت ^(٣) من بعلها ^(٤)، فشر لها عن ساعد الجد، عازما على رد ما بها من النثار والصد. فنجح جوعه وقواده [ونشر أعلامه] ^(٥)، ولم يزد على أن كان جيشه حشيه ^(٦) وخدامه.

فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول ^(٧) بقومه وعسكره، من «المسكر» التي هي محل وطنه ^(٨). فنزل «واد الزلامطة» ^(٩)، وبينه وبين المسكر ست ساعات ^(١٠)، ولما نزل أتاه ^(١١) أهل «أنقاد» يطلبون منه التوجه ناحيتهم والذهاب إلى بلادهم ^(١٢) وعينوا له غنيمة كثيرة يأخذها في تلك الجهة ^(١٣) مع كونها قريبة المسافة ^(١٤)، حقيقة بالأمن والسلامة. فلم يرد ذلك عن مطلوبه، ولم يصرفه عن مرغوبه، وصرفهم بوجه جميل ^(١٥) وأصبح مرتحلا يوم الجمعة، ونزل «واد العبد» . ومسافة ذلك خمس ساعات ^(١٦)

-
- (١) الزيادة من نخ .
 (٢) أبقت : هربت .
 (٣) نشزت : استعصت ، وامتنعت .
 (٤) بعلها : زوجها ، وحليها .
 (٥) الزيادة من نخ . والاعلام : الرابات التي تعقد على الرماح .
 (٦) حشيه : كل من يغضبون له ، ويغضب لهم ، من أقاربه ، وجيرانه ، وجمع رعيته .
 (٧) الموافق لليوم التاسع عشر من شهر جاني سنة (١٧٨٥) .
 (٨) نخ : د وطنه ومسكره .
 (٩) نخ : د واد الزلامطة بغير آفات .
 (١٠) مشيا على الاقدام — آنذاك — .
 (١١) في جميع النسخ : (أنوه) على لغة أكاو في البراغيث . والتصويب من قلنا .
 (١٢) نخ : د بلادهم وضاحيتهم .
 (١٣) نخ : د الجهة كبيرة .
 (١٤) نخ : د المسافة بالعلامة ،
 (١٥) نخ : د جميل في غاية الشباب .
 (١٦) أى : ما بين د واد الزلامطة ، و د العبد .

وقد كان أعد في هذا الموضع شيئاً كثيراً من الشعير ، بقصد هذا السفر (١) ،
فشرع في تفرقه (٢) بقية يومه ذلك كله (٣) ، وأقام هناك بالنبد لكمال تقسيم
اللف ، فأخذ كل واحد على قدر دوابه (٤) ، ثم قسم عليهم الإبل يحملون (٥)
عليها زادهم وعلفهم . فحصل للناس قوة وإعانة بذلك . وارتحل يوم الأحد
ونزل « دير الكاف » ، وبينهما (٦) من المسافة ست ساعات (٧) . وقد ورد
عليه هذا اليوم مشايخ الأعراب : كأولاد خليف والأحرار الشراقة وغيرهم (٨) .
وفي يوم الاثنين ترك الحلة مقبلة هناك وركب غازيا على « العمور » ، فشى
ثمانى ساعات حتى نزل البيضاء (٩) . وهذا المنزل ذو آبار كثيرة ، وهى سهلة
التناول (١٠) ، منها ما يكون مأوها على قائمتين ، ومنها ما يكون على أقل
لوا أكثر بقليل ، إلا أن بعضها أطيب من بعض .

فاستقت الناس ، وعلفت دوابها (١١) ، وعندما نزل وردت عليه مكاتيب
[من] الجزائر ، [وهى] أجوبة عن مكاتيب (١٢) اليباشى (١٣) ، فكان من

- (١) نخ : « السفر الجديد » .
- (٢) نخ : « تفريقته » .
- (٣) نخ : « ذلك كله من غير خلف » .
- (٤) نخ : « دوابه في كل ذلك » .
- (٥) نخ : نر : « يحمل » .
- (٦) أى : بين « واد العبد » و « دير الكاف » .
- (٧) نخ : « ست ساعات باقنطاف » .
- (٨) نخ : « وغيرهم بالانتخاب » .
- (٩) نخ : « البيضاء في المجدور » .
- (١٠) نخ : « تناول بالمحض » .
- (١١) نخ : « دوابها وهم فى اليباشى » .
- (١٢) فى جميع النسخ : « مكاتب الجزائر أجوبة مكاتب ، والزيادة والتصويب من قلنا ، لأن تمام المعنى متوقف عليهما .
- (١٣) اليباشى : اسم رتبة من رتب ضباط الأتراك وكانت البايات تبعث آخر كل شهر قدراً معيناً من المال إلى باشا الجزائر ، فيدفعه إلى أصحاب هذه الرتبة فسمى هذا القدر بمال « اليباشى » .

جملة ما استفيد منها (١) أن بعض أهل دائرة سيدنا « الباشة » - نصره الله -
 بثت فرساً أبيض من عتاق الخليل ، محبة ورغبة في سيدنا (٢) ، كما أن الأحرار
 الترابية قدموا عليه في ذلك (٣) الوقت بخيلهم التي اشترطها عليهم ، قبلها منهم ،
 وأمرهم أن يأتوا له بخمسة جائة جل ، كلها جيدة قوية على الحمل . قبلوا ذلك ،
 وطلبوا منه الأمان ، فأمنهم (٤) . وركب [مساء يوم الاثنين] (٥) وقت
 المغرب ، ومردنا بموضع يسمى « اللقيحة » فنزل قيمة بعض [الليل] للاستراحة .
 ثم أمم بقية ليله سائراً حتى أصبح في « عين سيدى على » ، وتقدير هذه (٦)
 المسافة تسع ساعات (٧) ، فأقام يومه ذلك هناك إلى أن فات وقت العصر (٨)
 فركب وجد في السير خمس ساعات ، ونزل « عين سيدى سليمان » ينتظر الطوالع (٩)
 فاتوه بخير منزل القوم ، وأنه خلف الجبل (١٠) . فلما سالمهم عن أسمهم : وجدهم
 غير الذين أرادهم ، فزجر الطوالع ووبخهم ، وقال لمشائخهم (١١) : إن لم تدلوني
 على ما ذكرت لكم ، فلا تقبل منكم غيرهم . فعند ذلك جدت الطوالع في غارتها ،
 وتفرقت الخليل في نواحيها - حتى أتوه عند « خنيق » (١٢) الملح (١٣) ،

-
- (١) في جميع النسخ : « منهم » ، والتصويب من قلنا .
 (٢) نخ : « في سيدنا الفضل » .
 (٣) نخ : « في تلك » .
 (٤) نخ : « فأمهم وهم في الانشراح » . (٥) الزيادة من نخ . مر .
 (٦) نخ : « وهذا » .
 (٧) نخ : « ساعات في المستعمل » .
 (٨) نخ : « العصر بالمطالع » .
 (٩) الطوالع : الأصل في الطوالع الكواكب التي يتبادل بطولها السعد ، أو
 يشاء بطولها النحر ، ويراد بها - هنا - رواد الجيش ، وكشافته .
 (١٠) نخ : « خلف الجبل ما نخهم » . (١١) أى لرؤسائهم .
 (١٢) نخ : « عند خناق » . (١٣) « الملح خيرهم » .

وبيته (١) وبين « عين سيدى على » تسع ساعات ، لأن من « عين سيدى على » إلى « عين سيدى سليمان » خمس ساعات . ومن « عين سيدى سليمان » إلى « خنيق (٢) الملح » أربع سوانع (٣) . وهذا الجبل كله من ملح ، إلا أن أكثره يظهر في رأى العين أخضر ، والبعض منه كشفت ترابه الأمطار وغسلته ، فصار ملحاً أبيض ما يكون . فإذا نظر العاقل هذا الجبل ظهر له ما يدل على قدرة الله تعالى (٤) ، التى لا يعجزها ممكن (٥) ، فسبحان مكنون الأشياء بقدرته ومظهر العجائب بحكمته . وحيث (٦) أدركته الطوالم ، حسبما ذكرت في هذا الموضع ، وأتوه بالغير اليقين ، صح عنده شن الفارة على تلك الجبال والأودية (٧) .

فلم يبق (٨) واد إلا وفيه طليعة ، ولا جبل إلا وعليه كتيبة (٩) ، وكانت منازل القوم بعضها في الوادى ، وأكثرها في الجبل . فقصده « سيدنا » من كان في الجبل منهم (١٠) ، فقرأوا هارين بأنفسهم (١١) طالعين النجاة لذريتهم وعيالهم ، فأخذوا عن أجمعهم ، إلا من ستره الله (١٢) . وكذلك - أيضاً -

(١) نخ : « وبينهم » . (٢) نخ : « غناق » .

(٣) هكذا في جميع النسخ التى بين أيدينا ، ولم أطلع على هذا الجمع ، وإنما ما عرفه هو : ساعات ، وسيلع ، وساع .

(٤) نخ : « تعالى المهيمن » . (٥) نخ : « الممكن » .

(٦) نخ : « وحين » . (٧) نخ : « والأودية بالتيقين » .

(٨) في جميع النسخ : « وادى ، والتصحيح من قلنا .

(٩) في جميع النسخ : « كتيب » . والتصويب من قلنا ، لأن الكتيب هو القربة المشدودة بالكوكا . وفى نخ : « كتيب سريعة » .

(١٠) نخ : « من كان منهم في الجبل » . (١١) نخ : « بأنفسهم دون ملهم » .

(١٢) نخ : « الله القدير » .

الذين في الوادى ، قد أحاطت بهم الخليل ، فلم يمنع لا قليل ولا كثير . فننمت
منهم الناس « غنية » كثيرة : من خيام ، وفرش وأمتعة ^(١) . ثم جمع ما أخذ
لهم من الإبل ، وحسبها فوجدها نحو ألف جبل . وأما الثمن فزهد فيها سيدنا ،
ثم انتهبها الناس بالذبح حتى ترى الرجل الواحد يذبح الشاتين والثلاثة
والأربعة ^(٢) حتى استغنوا كلهم وفضل نحو أربعة آلاف ، أخذها سيدنا وبات
مكانه . ويسى هذا الموضع بـ « سلام » ، ^(٣) وبينه وبين « خنوق للملح »
ثلاث ساعات ^(٤) ، ثم أصبح مرتعلاً نحو « الخضراء » ، فوصل إليها في ست
ساعات ، فجاوزها بنحو ^(٥) الليل ونزل على « تاويله » ^(٦) ، وبها مدينتان كل
واحدة لما بستين كثيرة ، وماء غزير ومزارع ، إلا أن « تاويله » ^(٧) أكثر
عمارة وأوسع مزارع ^(٨) ، فلما نزل الحلة ، وحطت الناس أمتاعها ، وضربت
خيامها وأخيبتها شرعوا في نهيمها ^(٩) . أما « الخضراء » فلم يجدوا فيها إلا ما
قل من الزرع والتبن ^(١٠) . وأما « تاويله » ^(١١) فقد وجد الناس ^(١٢) فيها من

- (١) نخ : « وأمتعة كبيرة » . (٢) نخ : « والأربعة خلاف »
(٣) نخ : « بسلام ، بلام مفتوحة مشددة ، وقد اشتبهت بباء الجرباء الكنية
على المترجم و Gorguos ، ففعلها في تهجيته لنص « بوسلام » انظر المجلة
الأفريقية لسنة (١٩٥٨ م) ، ص : ٥٦ .
(٤) نخ : « ثلاث ساعات بالمعلم » . (٥) نخ : « في نحو » .
(٦) نخ : « تاويله » . (٧) نخ : « تاويله » .
(٨) نخ : « مزارع من الخضراء تاويله » .
(٩) « في نهيمها ، وجمالت جولتها » .
(١٠) نخ : « والتبن التوالى » . (١١) نخ : « تاويله » .
(١٢) كلمة : بعض ، ساقطة من نخ .

التمتع والشعب وغيرها من الحبوب ما لا يحصى عدده الا الله تعالى . وقد وجدوا فيها [بعض] ^(١) الامتعة ، وأصاب [فيها] ^(٢) بعض الناس بيتا مملوفاً من الرمان . وهذا دليل على كثرتة بهذا البلد ، لأنه ليس وقت إبانة ^(٣) . وأما أهلها من الرجال والنساء فسمعوا بتقدمه قبل وروده عليهم ، فهربوا بأنفسهم وذراريهم ^(٤) وتفرقوا في رؤوس الجبال وبطون الأودية ، ولم يأخذوا من أنفسهم إلا ما خف حمله ، وكثر سومه ، وتركوا ما عدا ذلك ^(٥) ، فصار كله غنية للجند . فأقام بها يرمين والناس لم يفترقوا من نقل حوائجها وزرعها . ثم ارتحل منها ونزل « الحجير » ^(٦) وهذا المنزل فيه ثلاث عيون ، كل عين منها في غاية ما يكون ، في صفاء الماء وقوته ، واتساع الأرض التي تسقى به ^(٧) . ثم تلك العيون مفترقة في أماكن يتابعها ^(٨) ، وحيث انفصلت عن أماكنها ، انحدرت من بلادها ، اجتمعت فوق المضيق ، الذي يقال له : « رأس واد شلف » . ومنه إلى أسفل يسمى « سباق » ^(٩) وقد أخبرني من أتق به : أنه « الشلف » ^(١٠) على التحقيق . وقد وصف لي طريقته ، وسمى لي جميع البلاد التي يمر عليها ، حتى أوصله إلى قرب مليانة ^(١١) وكان هذا الرجل من أهل

(١) الزيادة من نخ . (٢) نخ : « إبانة بالبيان » .

(٣) نخ : وذراريهم ، وما إليهم .

(٤) نخ : « ما عدا ذلك بنفسها » .

(٥) « الحجير » : — بفتح الحاء وفتح الياء المشددة كما ضبط في نخ .

(٦) نخ : تسقى به لشدة . (٧) نخ : يتابعها وملادها .

(٨) نخ : « سباق » . (٩) نخ : « الشلف » .

(١٠) مليانة : هي ثالثة الثلاث : الجزائر ، والمدينة ومليانة . وقد أسس

جميعها « يلكين » ابن « زيري » بن « مناد » . الصنهاجي . بعد الستين من القرن الرابع الهجري .

هذا البلد ، بل هذا الخبير شائع عند أهل تلك البلاد ^(١) . فلا يتكره أحد منهم ^(٢) .
وكانت المسافة بينه وبين « تاويله » ^(٣) ست ساعات فبات الناس على هناك ^(٤) ،
وبالند طارت القوم في غيب ^(٥) الظلام إلى مدينة بقرب « الخبير » يقل
لها « تادامه » . فهرب أهلها ، وأخذوا ما قدروا على حمله وعاجلهم ^(٦) من
الباقى ^(٧) . فأخذوا ما وجدوا فيها من قبح وشعير ، وغير ذلك . وهذا ما كان
في ذلك اليوم .

ذكر على (الحلة) ^(٨)

سبق لنا أنه تركها في « دير الكاف » ، وذهب غازيا .
اعلم أنه لما أصبح يوم الاثنين عازما على ما أراد ، فاصدا لما يكمل مراده .
وكان مصاحبا له في هذه الحلة قرية ناظرة ، وعضد ساعده ^(٩) ، صاحب القجر
والأمتان ، جامع شتات الفضل والإحسان ، وارث مجدة : ابنه السيد عثمان ،
فأمره أن يقوم بأمر « الحلة » ، ويسير بها رائدا من غير عجلة ^(١٠) . فأقام
يومه ذلك ^(١١) ، وبالند ارتحل ، ونزل « السيد عبد الرحمن » ^(١٢) . ومنه نزل

-
- (١) نخ : « البلد » .
(٢) نخ : « منهم عناية » .
(٣) نخ : « تاوالة » .
(٤) نخ : « هناك ليست فيها ندامة » .
(٥) نخ : « غلب » ، وكلا اللفظين معناهما ظله آخر الليل .
(٦) نخ : « وعاجلهم » .
(٧) نخ : « الباقي بترك القوم » .
(٨) نخ : « وذكر على الحلة غازيا » . (٩) نخ : « ... ساعده وخاطره » .
(١٠) نخ : « بغير المعجلة » . (١١) أى يوم الاثنين .
(١٢) اسم مكان ، سمى باسم شخص صالح يقال له « السيد عبد الرحمن » .
وفي نخ : « السيد عبد الرحمن بالمل » .

عبد الرحمن. وفي نخ: السيد عبد الرحمن بالمهل. > ومنه نزل (القطيفة) وأقام بها لكثرة الأمطار، وشدة الوحل، وارتحل من القطيفة، ومر بالبيضاء > نخ: بالبيضاء وبها لم ينزلوا. > فأمر الناس أن يسقوا دوابهم، ويأخذوا الماء لأنفسهم، ففعلوا. ثم جاوزها ونزل بمكان قريب منها > نخ: منها بغير الاختلاق. > ثم ارتحل ونزل (الحليات). وبالغد ارتحل فنزل (مركانه) > نخ: > ونزل بمركانة. > ثم ارتحل ونزل الحليات. على يمين (وادي سيقاق)، بنسبة الذهاب بجهة القبلة > نخ: القبلة باتفاق. > ولما غشيهم الليل، طمع بعض أعراب تلك الجهة في سرقة المحلة، فاختلفت جماعة منهم، وصاروا يحتالون على كيفية الوصول إلى الإبل، أو غيرها من دواب المحلة > الزيادة من نخ. > فإذا بعض الترك كشفوهم > في نخ. نر: كشفهم. > وخربوهم فأصابوا واحداً منهم > الزيادة من نخ. > فقتلوه وقطعوا رأسه > نخ: وقطعوا رأسه لما استنكرهم. > وأتوا به لصاحب (المحلة): السيد عثمان ابن سيدنا، فأعطاهم دراهم وشكرهم. ثم ارتحل منه ونزل (الخير)، فاجتمعت المحلتان، والتقت الفرقتان. فكان يوم عيد، وعند كل واحد فرح جديد.

واشتد البرد في هذه الدار > نخ: الدار بالفحو. > ونزل من الثلج ما كانت الناس تظن أن مثل ذلك لا يقع في الصحو، لتسويتهم بين سهلها وجبالها > أي أن الناس كانوا يظنون أن الصحو في السهول مثله في قمم الجبال. > مع أن هذا الجبل ذو > في جميع النسخ: ذا. والتصويب من قلمنا. > بردي شديد > نخ: شديد مفرق للرفقات. > وهو مرتفع جداً، ومياهه كثيرة، فكان له شبه بجبال التل، بل هو أشدّ برداً منها في بعض الأوقات. ولما رآه > الضمير يعود على الثلج، والرائي هو محمد الكبير. وفي نخ: رأوه بصيغة الجمع. > قد كثر، ولم ينقطع خاف منه على الإبل، فارتحل وسار أربع ساعات ونزل (قصر أوفل) > هكذا في نخ، ونر. ولعله قصر أفلو وفي نخ: وادي الإبل الحربية. > فتركه ذات الشمال، ونزل جهته > نخ: جهته. > الغربية، وعندما نزلت المحلة قصدت القوم > القوم: الفرسان: الخيالة. > هذا القصر، لأجل الشعير والقمح وغير

ذلك >نخ: وغير ذلك ليأخذ كل ما له ناب.< فوجدوا أهله هربوا منه ولم يتركوا شيئاً ظاهراً، فبحثوا في أماكنه الخفية، فبعضهم أصاب، والبعض خاب. وفي هذه الدار >أي: قصر آفلو، أوفل.< قدمت عليه طوائف العرب مثل (أولاد صالح) و(أولاد يعقوب) (القبالة، و) (أولاد يعقوب) الغرابة >نخ: الغابة.< وغيرهم. وكلهم أتوا ب (القادة) >القادة: قوادهم ورؤساؤهم، والكلمة أقليلية النزعة. وفي نخ: بالقادات.< طالبين الأمان لأنفسهم متحيلين لما فُرض عليهم >نخ: عليهم لنيل خيرهم.< فجعل على كل قبيلة منهم شيئاً معلوماً من الأبل والخيول وأمنهم، وكساهم، ورفع عنهم ما هم فيه من الخوف والويل.

ففرحوا بالأمان فرحاً شديداً، وذهبوا مبشرين أهلهم بعافية وطنهم وعمارتهم ومخيرتهم بسطوة الملك >نخ: عليهم لنيل خيرهم.< وكرامته. وبقي بهذا المنزل يومين وارتحل، فمشى ست ساعات ونزل (وارن) >بهذا اللفظ في نج، ونر. وفي نخ: وبالروان نزل. وقد شك المترجم

ست ساعات ونزل « وارن » ^(١) على حاشية الروادي ^(٢) من الجهة الشرقية .
ومن الجهة الغربية يصعد إلى القعدة ^(٣) ، التي يضرب بها المثل في الصعوبة المحيطة
بها سبعة أدوار ^(٤) ، فذلك اشتهرت بهذا الاسم ^(٥) . فتجد البعض يسميها
« سبعة أدوار » ، والبعض يسميها : « القعدة » . فالقعدة عندهم علم بالثقل على
الموضع الخصوص في طرف « جبل راشد » ^(٦) . وقد انحاز إلى هذه القعدة
جميع من في هذه الجهة من الأعراب وامتلأت منهم الأودية ، والجبال والشعاب ،
ظنا منه أنها تنجيه ، وتمنعه من يطعم فيه وتحميه ، فاعتمد عليها ، وفوض أمره
إليها ، حتى أنه رقد بالنوم ، ولم يشعر بما تصنع قدرة الحى القيوم . وعند المساء
أمر مناديه ^(٧) أن ينادى بين أجناده : ألا أنه إذا طلع فجر ، فليتهب الراكب
والعسكر ^(٨) . ولما أصبح الله بخير الصباح ، وركب سيدنا ، وقصد « سبعة
أدوار » بجبله ورجله ، و « لكل امرئ منهم — يومئذ — شأن يغنيه » ^(٩)
فلما أحست به الأعراب التي في القعدة تحصنوا في جبل وعر ، وواد حصين ، بحيث

-
- (١) بهذا اللفظ في نج ، ونز . وفي نخ : « وبالروان نزل » . وقد شك
المترجم في تركيب كلا في المعنيين ، وتحقيق من دخول تصحيف عليهما .
أنظر : « المجلة الأفريقية » لسنة (١٨٥٨ م) ، ص : ٥٩ .
- (٢) في جميع النسخ : « الواد » والتصويب من قلنا .
- (٣) نج ، نر : « القمر » . (٤) نخ : « أدوار كالمجموعة » .
- (٥) نخ : « الاسم في الرخاء والشدّة » .
- (٦) نخ : « راشد المرتفع » .
- (٧) نخ : « مناده » .
- (٨) يقصد به « الراكب » ، الفرسان ، وبه « العسكر » الجنود المشاة .
- (٩) هذا اقتباس من آى الذكر الحكيم سورة : « عبس » . الآية : ٣٧ .

ان الرأى إذا تأمله ونحقق حصنه ووعره ، علم أنه لا نظير له ^(١) . فلم يلبثوا
إلا قليلا حتى أحاطت بهم القوم ^(٢) من كل جهة ^(٣) ، وجمعت ثلثت ألفهم ،
وتنهب خيامهم ، وأمتعتهم حتى أخذوا ^(٤) عن آخرهم ، ثم وصل اليهم المنكر
وصار يلقطهم من تحت الأحجار ، ويخرجهم من النيران ، حتى أنه لم يبق
منهم واحد إلا وهو واحد من ثلاثة ^(٥) : أما قتيل ، أو أسير ، أو مقطوع
الأذن حسير ^(٦) ، بعد أن كان فريد دهره ، وواحد عصره . وقد نبه سيدنا على
أن المرأة لا يتعرض لها ^(٧) ، ولا يأخذ أحد شيئا من لباسها ، صونا لحرمها
وتنزيها عن حقارتها ^(٨) . فلما رأى ما حل بهم أدركته الشفقة عليهم . فأمر
بإطلاق الشيوخ والصبيان ، وترك ^(٩) الكهول ، والشبان والأعيان ، حتى
أوصلهم إلى « المحلة » ، وباتوا على حالهم تلك الليلة ، وعند الصباح جمعهم وأعطى
لكل من جاءه بواحد منهم [العدد] ^(١٠) الذى سمى له ، ثم أطلقهم ، منامته
عليهم ، راجيا أجر ذلك ^(١١) ، وراغبا في ثواب ما هناك ^(١٢) . وكان أكثر ما
أدركه الرقة حين رأى شيخا كبير السن من ذرية بعض الصالحين أنه لا يقدر
على المشى ، أمر خدامه أن يحملوه ، وكساه وأعطاه دراهم ^(١٣) ، وبأند أعطاه

-
- (١) نبح : لا نظير له فى التحقيق ، (٢) أى : الفرسان (الحياة) .
(٣) نبح : جهة فى محاصرتهم ، (٤) أخذوا : بالبناء للجهد ، .
(٥) نبح من ثلاث بالبيان ، (٦) حسير نادم ، متلف .
(٧) نبح : لها فى حقارتها ، .
(٨) حقارتها : يريد بمقارنتها - هنا - ضعفها وعدم استعدادها لمقاومة الشدائد .
(٩) وترك : أى تركهم قيد الأسر . (١٠) الزيادة من نبح ، نر .
(١١) أى : أجر ذلك المن . (١٢) أى : فى الذار الآخرة .
(١٣) : « دراهم ، ولم يكن فيه من الزاهدین » .

فرسا ، وزاد له كسوة أخرى ، ودرهم ، وردة لأهله مكرما^(١) . وهذا الرجل أصله من « النيشة » يدعى « السيد »^(٢) الموهوب « . وأما النعم والبقر ، فلم يأخذ شيئا من ذلك ، لأنه كان يفضل [بها] ^(٣) على خدامه ، بل قال لهم : من أخذ شيئا فهو له ^(٤) وأمر أن يعلن بذلك المنادى ، حتى صار شائما ، دائما عند كل حاضر وبادى ^(٥) . فعمل الناس يقسمون القليل والجليل ، ويركضون في كل صاعد ونزيل . وحصل لهم سرور ونعمة ، وتباعدت عنهم كل فاقة حلة . فلا تسمع إلا هذا صائد يطرد ، وهذا صائح يهرب ^(٦) . والكل معلنون بحياة سيدنا ومبتهلون بالدعاء بنصره ، وتخليد الخلافة في نسله وقرعه ^(٧) . ثم أن بعض العرب من أهل « هذه القعدة » ممن أسدده ^(٨) الله حين صعد سيدنا إليها ^(٩) تمسكوا ^(١٠) بالمشايخ الذين معه ، واعتذروا بضعفهم ، وقلة معرفتهم بالملك . فصالحوه على أن يعطوا له أربعائة رأس من البقر ، ومائة حمل من

(١) نخ : مكرما في حالة المحبوب .

(٢) نخ : « بالسيد » .

(٣) نخ : « به » . نخ ، نر : . والنصوب من قلنا .

(٤) نخ : « له » وصم في كلامه .

(٥) أي : حضري ، وبدوي .

(٦) يهرب : هكذا في جميع النسخ . ولعله : ينزرد ، لأن العريضة لردة سوء

الخلق . لا هذا لا يتناسب مع سياق كلام المؤلف .

(٧) نخ : « وقرعه باشره » .

(٨) في جميع النسخ : « سعد » . والنصوب من قلنا . لأن سعد

لا يتعدى .

(٩) نخ : « إليها للسلوك » .

(١٠) نخ . نر : « فتمسكوا » .

الشعير^(١) . وأما الخليل لم يكن عندي^(٢) تحقيق في كم ما دفعوا له^(٣) فحين يتقنوا حزمه^(٤) وراوا جده وفعله ، علوا أن التراخي لا يمكن شغله^(٥) ، ولا ينفع التأني في خدمته . فذهبوا مسرعين بجميع ما أمرهم به^(٦) ، فلم تطن أن أقسمهم^(٧) حتى أتوا بجميع ذلك ، ورجعوا بين خوف ورجا ، طامعين أن يجعل الله لهم بطاعتهم فرجا . ثم ارتحل عنهم ، وجاوز واد مرة^(٨) في ثلاث ساعات .

وجد في سيره حتى نزل « الدبداب » على ست ساعات ونصف . وهذا الموضع هو رأس « واد القصب »^(٩) . وكما يسمى « الدبداب » يقال له : أبو شكوة أيضا . « والكرط » في جهته الشرقية على نحو الميلين ، ووثقه « حاس الحمار » على نحو ثلاثة أميال^(١٠) . والجبل الذي في قبلته يسمى « الأخضر » وفي طرف « الأخضر » من جهة الشرق قرية ، تسمى : « الشارف » ، وحيث نزل هذا الموضع ذكرت له مدينة ، وهذه المدينة تسمى : « زينة »^(١١) ، قرية من « الدبداب » بنحو أربعة سواتع .^(١٢) وهي لبعض الأعراب الذين لا حكم

-
- (١) نخ : « حل شعير ،
 ل(٢) نخ : « فيسكم فادفعوا له بالتحريير ،
 (٣) نخ : « فمك شغلته ، وعبارة النص لم تؤد تمام المعنى .
 (٤) نخ : « به في ذلك ،
 (٥) نخ : « في ثلاث ساعات بلا عنف .
 (٦) نخ : « واد القصب عضا ،
 (٧) نخ : « ثلاث في المتقارب ، .
 (٨) نخ : « ذكرت له مدينة تسمى الزينة في لشائع ، .
 (٩) سواتع : هكذا في جميع النسخ التي بين أيدينا والصواب ساعات ،
 أو سباع ، أو ساع .

عليهم لأحد . وأهلها أصحاب قوة ، وعدة ، وعزة ^(١) . وقد ذكروا له أن باى
(تيطرى) نزل عليها فطردوه ^(٢) ، وقتلوا له رجلين ، وذهب مذموما
مدحورا .

فلما سمع كلامهم على هذا الوجه اشتد حرصه عليها ، وأراد النزول بقربها ،
فراوده بعض من كان معه من المشايخ أن لا يذهب إليها ، وأن لا يكشفه
حريمها ^(٣) . ووصفها له بالحقارة وعدم الطاقة . وقال له : ليس فيهم قدرة على
على ملاقاتك ^(٤) ، وهم مشتغلون في خدمتك ، وأنهم يجمعون خمسة وعشرين
مملوكا ويقدمون بهم ^(٥) لحضرتك . فأبى عن خدمتهم ، ورغب عن طاعتهم ،
ولم يرد إلا عقوبتهم ^(٦) لجسارتهم على (الباي لار) ، وأخذته الإلقة عليهم ،
ولكن استصغرم في عينيه . فعملت همه أن يتولى قتالهم بنفسه ^(٧) ، فأمر
خليفته ومتولى خدمته ، [من له قدمه] ^(٨) في الفاخر السيد محمد بن
عبد الله ^(٩) أن يذهب إليها ، ويرجف بخيله وركابه عليها ، وحيث
سمع كلامه نهض إليها ، وأخذ معه بعض المسكر ^(١٠) . فلما رآه ^(١١)

-
- (١) نخ : « قوة ، وعزة ، وذو عدد » .
(٢) نخ : « فطردوه عقورا » .
(٣) نخ : « حريمها بحرهما » . (٤) نخ : « ملاقاتك الشاقة » .
(٥) في جميع النسخ . « بها » ، والتصويب من قلبنا .
(٦) نخ : « عقوبتهم باشتار » . (٧) نخ : « بنفسه فيما لديه » .
(٨) الزيادة من نخ . (٩) نخ : « محمد بن عبد الله من المشاهر » .
(١٠) نخ : « المسكر للنزول عليها » .
(١١) في جميع النسخ : « رآوه » على لغة أكلوني البراغيث . والتصحيح
من قلبنا .

أهل تلك القرية ^(١) علوا [أنهم] ^(٢) لا قدرة لهم ولا ملأقة للملاقاة، فخرجوا منها بأجمعهم، ولم يأخذوا شيئاً من أمتهم وقوتهم ^(٣)، وتركوها «خاوية على عروشها» ^(٤)، أسيرة في يد عمقوتها ^(٥) فدخلها من غير حصار عليها ولا قتال ^(٦) فانهبت جميع ما فيها من التماش و «الترائر» ^(٧) والسن وقبر ذلك مما ترغب فيه النفوس. وقد وجد فيها من التمتع والشمير ^(٨) ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، فغلبت منه الناس شيئاً كثيراً ^(٩) وأكثرهم يرغب في الشمير دون التمتع. فترام يفتحون المطامير، فإن وجدوه شميراً حلوا منه ما قدروا عليه، وإن وجدوه قحاً يأخذوا منه شيئاً ^(١٠)، وكر ^(١١) راجعاً لمحلته، ظافراً ^(١٢) بحاجته، فأقام ^(١٣) في الندى في هذه الدار ^(١٤). وقد كان يريد عليه أهل تاجموت ^(١٥) وأهل عين ماضي ^(١٦) بلسانهم وكبرائهم، يريدون خدمته كأحد ^(١٧)

- (١) نخ : «القرية وكثرة جيشه وطاقاته». (٢) في نخ : «نر : أنه».
- (٣) نخ : «وقوتهم وسلمهم».
- (٤) اقتباس من آي الذكر الحكيم، «سورة البقرة» الآية ٢٥٩.
- (٥) نخ : «عمقوتها بفروشها». (٦) نخ : «ولا قتال يسوس».
- (٧) الترائر : مفردا حرارة بكر أوله، وهي الجواله التي تنسخ من صوف، أو وبر، أو شعر، بقصد جعلها، أو عية للحبوب.
- (٨) نخ : «والشمير ومالا به يبالا». (٩) نخ : «كثيرا بالعر والفرح».
- (١٠) نخ : «شيئا ولا يرجعوا إليه».
- (١١) الضمير في «كر» يعود على محمد بن عبد الله.
- (١٢) نخ : «ضافرا» يضاد غير مشالة.
- (١٣) الضمير من «فأقام» يعود على الباي محمد الكبير.
- (١٤) المراد «الدار» = هنا = «الدبداب» (١٥) نخ : «تاودموت».
- (١٦) نخ : «عين ماضي بالاشتار».
- (١٧) في جميع النسخ : «كأحد». والتصويب من قبلنا.

«رعية» ويلزمون أنفسهم بشئ يرتضاه ^(١) ، حتى تأتي على جميعهم النية .
 قسط لكل واحدة منها قسطا معتبرا ^(٢) يعطونه في كل عام إلى آخر الدهر .
 وجعل لهم شيئا معلوما - غير الذي ألزموا على الأبد - ^(٣) يؤدونه ^(٤) إليه في
 هذه السنة خاصة فقبلوا ذلك كله ، وشرعوا من حينهم في دفعه . ^(٥) فكانوا ^(٦)
 يدفعون الدرام ، والصياغة ^(٧) ، والثياب ، والخيل . ثم ارتحل من «الدباب»
 ونزل «المواجب» ^(٨) قبالة «تاجوت» ^(٩) . ومسافة هذه الرحلة ثلاث
 ساعات ^(١٠) وبهذه الدار عيون كثيرة ، وماؤها عذب سائغ للشاربين ^(١١) ، ونحوه
 مزارع تسقى منه ، وبينه وبين «تاجوت» ^(١٢) نحو ثلاثة أميال . وفي هذه الدار
 دفع ^(١٣) أهل «تاجوت» ^(١٤) جميع قطيعتهم التي تحملوها ، وشرع ^(١٥) أهل
 «عين ماضي» في الدفع ^(١٦) ، ثم ارتحل ونزل «أم الضلوع» ، على ثلاث ساعات

(١) نخ : « بما يرتضاه » . (٢) نخ : « القسط المعتبر » .

(٣) نخ : « على الأبد ليس مقاصة » .

(٤) نخ : « يؤدونه » . نج : « يرزونه » . والتصويب من قلبنا .

(٥) نخ : « في دفعه في النهار والليل » . (٦) نخ : « فكانه » .

(٧) الصياغة الحللى من الذهب والفضة . والكلمة عامية ؛ لأن «الصياغة»
 حرفة الصائغ .

(٨) نج : « والجوابج » . (٩) نخ : « تاودموت » .

(١٠) نخ : « ساعات في الثبوت » . (١١) نخ : « للشاربين مدة الأجيال » .

(١٢) نخ : « تاودموت » .

(١٣) في جميع النسخ : « دفعوا » ، والتصويب من قلبنا .

(١٤) نخ : « تاودموت » .

(١٥) في جميع النسخ : « وشرعوا » ، والتصويب من قلبنا .

(١٦) نخ : « في الدفع للقطيعة التي تحملوها » .

من « الحوارج » . وعندما وصل المنزل قدمت مشايخ « بنى الأعواط »^(١) وعلمائهم ، وأبائهم [كتاب]^(٢) صحيح البخارى — رضى الله عنه — طالبين الأمان على أنفسهم وأهلهم^(٣) ، وهم مذهبون بالطاعة ، قائلون أن يكونوا رعية على أن يعطوا مائة خادم وخمسة آلاف ساطاني ، ومائة ثوب وأربعة أفراس . فلما رأى حرصهم على هذا الأمر وتحملهم ورضام بذلك القدر قال لهم : أن أنتم بما ذكرتم ، ووفيت بما وعدتم فلستم منى الأمان — وأى أمان — ، ثم كسبهم كلهم ، كما كانت عادته مع غيرهم ، وزاد لكبيرهم « منطقة »^(٤) قائلة ، و « حلة » راتبة . وطلبوا منه أن يقيم في هذا الموضع^(٥) حتى يدفعوا له جميع ما التزموا . وانصرفوا ، وبث معهم خدامه^(٦) « الحجازية » لتلصص ذلك على المادة المعلومة في الرعية . فلما وصلوا للبلاد ، وتفكر سيدنا في أمرهم فوجد أنه لم يعمل عليهم شيئا معلوما ، يؤدونه في كل عام ، ويأخذ عليهم عهدا في ذلك^(٧) ، مع أن هذا هو المقصود بالذات . وأما غيره — ولو كان كثيرا في نفسه — فهو تابع ، غير مقصود . فكتب لهم كتابا يملهم بما نسيه وأنه هو المراد^(٨) . وبقي وبث به مع بعض « قيادة »^(٩) ، فطرقهم به ليلا ،^خ إلا أنه وجد نياتهم قد تحوت وطوياتهم قد فسدت ، فاجتمعوا عليه لقراءة

-
- (١) نخ : « بنى الأعواط لنيل المراتب » .
 (٢) الزيادة من نخ . نر .
 (٣) نخ : وأهلهم لمن النهراس .
 (٤) منطقة : — بكسر الميم وفتح الطاء — ثوب يتنطق به .
 (٥) نخ : « الموضع الذى فيه بالعدد تسكفوا » .
 (٦) نخ : « خدامهم » .
 (٧) نخ : « فى ذلك الالتزام » .
 (٨) نخ : « المراد بالمقصود » . (٩) « قياده : قواده والكلمة أقليمية عامة

الكتاب ، وبقى حامله وأصحابه منتظرين ^(١) ما به من الجواب . فلما فتحوه
ألقوه مخاضاً لنرضهم ، فجعلوه سبياً لنقض عهدهم وحجة لكرهم . وقالوا - كلهم -
هيهات ، هيهات ، فلا يكون شيء من هذا مدة الحياة ^(٢) .

ثم أمروا « المخازنية » بالارتحال عنهم سالمين وإلا يذهبون ^(٣) نادمين .
واشتغلوا بعمارة الأسوار ، ويقولون لبعضهم بعضاً ^(٤) : الحصار الحصار ،
وجعلوا يعيشون لمن حولهم من الأعراب والقرى . « وتراهم سكارى ، ومأم
بسكارى » ^(٥) فجاءتهم الأجناد حتى ظنوا أنه لا يصلهم أحد إلى البلاد .
ورتبوا أعيان البلاد ، أهل النجدة والبأس ^(٦) في الأماكن التي يخاف منها ^(٧)
وجعلوا الرماة ^(٨) في الأبراج العالية المشرقة على جميع البقاع . وغلقوا أبواب
الديانة بالبنيان ^(٩) . ربما غلقوا السكك ^(١٠) وأبواب الدور بالبنيان كذلك ،
ويفتحون طاقات يدخلون منها ويخرجون ^(١١) .

والحاصل أنه لم يسبق لهم باب من أبواب الخوف إلا وغلقوه ، ولا أمر

-
- (١) نخ : « ساملة منتظرا » .
(٢) في جميع النسخ « الحيات » . والتصويب من قلنا .
(٣) نخ : « يذهبون » .
(٤) نخ : « بعض » .
(٥) هذا اقتباس من آي الذكر الحكيم ، سورة الحج ، الآية : (٢) .
(٦) نخ : « فر » . والناس :
(٧) نخ : « منها هلاك النفس » .
(٨) في جميع النسخ . « الرماة » ، والتصويب من قلنا .
(٩) نخ : « بالبنيان الشديد الانغلاق » .
(١٠) السكك : الآزقة .
(١١) نخ : « ويخرجون لذلك » .

نافع لهم إلا واستدوه ، والمواضع الرميعة جددوها ، والجديدة حصنها وشيدوها ، مع أن هذه المدينة عقابية في نفسها ، بحجة يأسوارها ورجالها . ولذلك لم يطلع أحد ممن كان قبله فيها ^(١) . ولا رتبوا كل صنف ^(٢) على حدته ، وحرّضوه على سد عورته ، بلغ ذلك كله سيدنا — أيده الله — وصح عنده خبرهم ، وشاع في الناس بخالفهم ^(٣) ، ارتحل فونزل عليهم ^(٤) والمسافة بينهم وبين « أم الضلوع » ثلاث ساعات ، فعندما وصل إلى منزل « الحلة » ^(٥) ، وذلك بقرب المدينة بنحو الميل من الجهة الغربية ، ترك الناس يبنون أخبيتهم وتقدم ينظر المدينة ^(٦) ، وكان معه بعض العسكر . فصعد العسكر إلى الجبل ، وهذا الجبل متصل بالمدينة ^(٧) من الجهة الغربية والشرقية ، دون الجوف والقبلة . وحيث وصل العسكر إلى الموضع الذي يمكن منه الرمي ^(٨) ، جعلوا يرمون على المدينة بالرصاص ، ورمام « الطبعي » صاحب المدفع بنحو ثلاثة أو أربعة مدافع . وحين تأمل سيدنا المدينة ، وميز سهلها وعورها ، أمر من كان معه من العسكر أن يرجع إلى منزله وتحقق أن يدخلها ^(٩) . لأنه — أطال الله بقاءه — كان له فطنة زائدة ، وتجربة صادقة ^(١٠) مع ما هو عليه ممارسة الحروب ، وفهم لما ترمزه العيون ^(١١) ، وما تضره الجيوب ^(١٢) . وأما

(١) نخ : « فيها لكثرة وبالها » .

(٢) كل صنف : من رجال أهل البلاد وأناتهم .

(٣) نخ : « مخالفهم وجسرهم » . (٤) نخ : « ونزل بالثبات » .

(٥) نخ : « الحلة بالحلية » . (٦) ينظر المدينة : يطلع عليها .

(٧) نخ : « لكونه متصل بالمدينة » ، وقد اكتشفها اكتشاف الرصعة .

(٨) نخ : « الرمي المفازع » . (٩) نخ : « يدخلها ويزيل أثرها » .

(١٠) نخ : « صادقة غير جائدة » . (١١) نخ : « العين » .

(١٢) الجيوب : الصدور .

ثبوت الجنان (١) والشجاعة (٢) فثنى تحار فيه المقول وتقتصر عنه العبارة .
 هذا وقد رجع إلى « محلته » ، وجمع كبراء قومه ، وأرباب دوله ،
 واختبرهم في كيفية قتالهم ، لينظر (٣) سيدنا رأى القوم ، ويدفع بمشاريرهم
 عنه اللوم . فوجد السكل متفقين على رؤية ومسلمين أمرهم إليه . قال لهم
 — عند ذلك (٤) — : إن هذه المدينة قد أحيطت بها البساتين والأبراج .
 وبساتينها كلها مدورة (٥) بالسور . فحيطانها متراكمة وأسوارها متخافتة
 متكاثرة . ولو كان سور واحدة (٦) لم يردنا ، أو اثنين (٧) ، أو ثلاثة لم
 يضرنا ، ولكن أسوارها مشتبكة ، بعضها خلف بعض ، فلا بد أن تجمعوا
 خدائكم ومواليكم ، الذين لا سلاح لهم ، يحملون بأيديهم « القيسان » (٨)
 ويذهبون مع المسكر (٩) .

فكلما وصل المسكر لحائط من تلك الحيطان ، أو برج من تلك الأبراج (١٠)
 يركبه أصحاب القيسان بالهدم حتى يجعلوا فيه طريقاً للمسكر . ثم يحاربونه إلى
 الحائط [الذى] (١١) خلفه (١٢) . وهكذا حتى ينفذوا إلى المدينة ، أو يقاتلوا بها (١٣)

-
- (١) أى : ثبت القلب . (٢) نخ : « والشجاعة المطارة » .
 (٣) لينظر : ليختبر ، ويسبر . (٤) نخ : « عند ذلك قوله المشكور » .
 (٥) مدورة : محاطة .
 (٦) في جميع الفسخ : « سوراً واحداً ، والتصويب من قلنا .
 (٧) في جميع الفسخ : « اثنين ، والتصويب من قلنا .
 (٨) القيسان : لغة أقلبية في أفوس ، وفؤوس .
 (٩) نخ : « مع المسكر بالمحض » . (١٠) نخ : « الأبراج بالبنيان » .
 (١١) الزيادة من نخ . نر . (١٢) نخ : « خلفه في المشهو » .
 (١٣) نخ : « أو يقاتلها بالنباه » .

هكذا فعل — إن شاء الله — فلما أصبح الله بخير الصباح ، أمر الناس أن يستوادواهم ، ويقضوا مآربهم أول النهار ، وأبى عن القتال في ذلك اليوم ، لأنه كان يوم جمعة ^(١) ، فلما استقصت الناس ، وقضت حوائجها بحث لأهل القيسان ^(٢) أن يأخذوا فيساتهم وأمر المسكر أن يذهبوا معهم ^(٣) ، وأوصام على الأشجار والنخيل ، فلا يقطعون شيئاً منها ^(٤) . ومن قطع شجرة أو نخلة ، قاله حسيبه . ومتولى الانتقام منه . وأمر عسكر الترك أن يقصدوا ^(٥) الجبل ، مكانهم بالأمس ^(٦) وباق الطوائف أن يمددوا بالبساتين من الجهة الغربية والجهة البحرية ، ويكون معهم أصحاب القيسان ^(٧) ، ليهدموا الحيطان التي في طريقهم ^(٨) الحائلة بينهم وبين المدينة ، وأوصام — بأن لا يقصدوا المدينة في هذا اليوم ، وإنما اشتغلوا بتوسيع طريقها ، وقطع جناحها حتى إذا حملنا عليها بعد اليوم ، لم نجد ما يشغلنا عن قتالهم ^(٩) . قوتهم في هذه الحيطان فلا تقصروا عن تقضها . ثم عين لكل قبيلة موضعها ^(١٠) ولكل

(١) نبح : جمعة الأبرار .

(٢) نبح : الر : البستان .

(٣) نبح : معهم بطانهم

(٤) نبح : لا يقطع شيئاً منه .

(٥) نبح : يقصدوا .

(٦) نبح : بالأمس بالخدمة الكلية .

(٧) نبح : القيسان بالنمينة .

(٨) نبح : وطرقهم .

(٩) نبح : قتالهم بمحضها .

(١٠) نبح : موضعها وحوزها .

طائفة مركزها . فكانت « الزمالة » (١) أسفل الجبل ، من الجهة الغربية .
 والترك عن يسارهم في قنة الجبل المتصل بالمدينة (٢) . وعن يسار الترك المدافع
 في أسفل الجبل من الجهة الغربية قبالة باب المدينة من القنابر ، وعن يسار المدافع
 من الجهة الغربية - أيضاً - الدوائر (٣) ، وعن يسارهم من الجهة البحرية
 مخزن الشرق (٤) ، هكذا عينهم سيدنا - أيده الله -

فما استتم كلامه حتى انهمل المسكر كالسيل وتراكم كقطع الليل ، واتبع
 كل واحد رايته وقصد كل مقاتل جهته ، التي عينت له (٥) ، وارتفع النهار ،
 وكثر النبار ، وحمل كل واحد على ما يليه (٦) ، فلم يكن غير ساعة حتى بلغوا
 إليهم ، وخالطوهم في جناتهم وحيطانهم . فجللوا كلاماً مروا بيستان إلا وهدوه
 هذا وخرت حيطانه إلى الأرض سجداً .

ولما رأت أهل المدينة أن المذاب قد أحيط بهم ، والبلاء نزل بساحهم (٧)

(١) الزمالة : هم طائفة من « المخزن » الغربي الذي يضم نجح « الدوائر »
 و « الزمالة » و « الغرابة » و « البرجية » .

وأما « المخزن » الشرق فإنه يضم نجح « المكاحلية » و « أولاد سيدى عربى »
 و « صبيح » ، و « أولاد العباس » ، وغيرهم من أهل النواحي الشرقية من
 « مينا الشلف » .

(٢) نخ : « بالمدينة المبلية » .

(٣) الدوائر هم إخوة البرجية ، وكانت رئاسة المخزن متداولة بين هؤلاء وأولئك
 أيام الأتراك ، ومن « الدوائر » تفرعت طائفة « البحايشية » التي ينتسب إليها مصطفى
 ابن اسماعيل ، صديق فرنسا ، وعدو الأمير الحاج عبد القادر .

(٤) نخ : « مخزن الشرق بلا اشتباه » .

(٥) نخ : « له وناحيته » .

(٦) نخ : « ما يليه لنيل ميطنهم » .

(٧) نخ : « بساحتهم وبهم » .

علموا أنه سيصلهم ويستأصلهم (١). فجاءوا يميناً وشمالاً ، وتزحزحوا عن مواضعهم ، ولحق أولهم بأخرهم . ثم انكشفوا وركب ظهورهم الدسك ، يقتلونهم كيف شاءوا وحيث شاءوا ، وأين شاءوا . وقبضوا منهم جماعة ، فأوثقوا أسارى ، وحال بينهم وبين البقاة (٢) كثرة الجيطان (٣) . فكانوا مهملين تقضوا حائطاً وطلبوا خلفه ، إلا وجدوا تأخروا من ذلك الموضع (٤) وتمحصوا من وراء حائط بعده (٥) ، حتى قيل إنهم هدموا أكثر من خمسين حائطاً .

وقد كلت أصحاب « الفيسان » من المدم ، وقد تربوا من المدينة (٦) ولم يبق بينهم وبينها إلى سور واحد ، فرجعت الناس وقد ظهر لهم النصر ، وبان لهم الفتح والظفر . ولو كان لهم إذن في الدخول في ذلك اليوم ، لدخلوها (٧) ، فله در الدوائر في ذلك اليوم ، لقد أبوا بلاء حسنا . وكذلك كل من كان في تلك الجهة نحوهم (٨) .

فكل ثقل الحرب عليهم . وهذا كله بمنظر سيدنا ومسمه (٩) ، ولذلك

(١) نبح : « ويستأصلهم ويذهب بمفاخرهم » .

(٢) في جميع النسخ : « البقاة » ، والتصويب من قلنا .

(٣) نبح : « الجيطان وصيرون حيارى » .

(٤) نبح : « الموضع لما خلفه » .

(٥) نبح : « بعده حائطاً » .

(٦) نبح : « من المدينة محل الموارد » .

(٧) نبح : « لدخلوها غيبنا » .

(٨) نبح : « نحوهم وانتى إليهم » .

(٩) نبح : « ومسمه باشتار » .

حين رآهم قربوا من المدينة - وقد مضى النهار - خاف على المسكر أن يدخل المدينة (١) وقد أقبل الليل فلم يتم مراده ، وربما كانت للمدو بذلك فرصة ، لأن له خبرة ببلده (٢) ، فبحث بعض خدامه أن يأمرؤا المسكر بالرجوع (٣) فرجعوا . وافصل القتال . وقد أصيب من « بنى الأغواط » وأحلافهم (٤) مايزيد على ستين رجلا ما بين قتيل وجريح ، واحد (٥) عشر أسيرا . وحيث رأت الأحزاب ما حل بهم (٦) علموا أنهم سيهلكون عن آخرهم ، ولا قدرة لهم على مطاردتهم يوما آخر (٧) ، [بل] لا يطيقون (٨) على ساعة واحدة (٩) ، واشتد خوفهم ، وزاد رعبهم ، وتفرقوا جماعات ، كل جماعة رجعت لأهلها ، وعمدت نحو وطنهم (١٠) ، وبعضهم مضى على وجهه حين الهزيمة ، فلم يرجع ولم يلتفت إلى المدينة (١١) هذا لمن كان منهم بغير أهل ومال . وأما من كان منهم بأهله (١٢)

(١) نخ : « المدينة واشتد مجاهده . »

(٢) نخ : « ببلده وتحمل بحيشه نقصة . »

(٣) نخ : « بالرجوع لضيق الحال . »

(٤) نخ : « وأحلافهم شبيرا . »

(٥) نخ : « واحد . »

(٦) نخ : « بهم بمناكرهم . »

(٧) نخ : « مطاردة يوم آخر ، »

(٨) نخ : « ولا يطيقون . »

(٩) « واحدة في يوم آخر ، »

(١٠) نخ « وطنها طالبة للنجاة . »

(١١) « المدينة بالمريضة ، »

(١٢) نخ : « بأهله وخشى من وبائه . »

بقى حتى غشيه الليل ، وستره الظلام ، فحملوا أمتعتهم وأهلهم وهربوا (١) ولم يبق منهم إلا الجريح الذي لا قدرة له على المشي (٢) .

وحكى أنه مات منهم في اليوم الأول - حين رمى عسكر الترك (٣) ستة (٤) رجال وأمرأة كانت تحرضهم فأصابها رمية غلطا .

وحين رجع العسكر صار يمرض بعضهم بعضا . وأوجبوا دخول المدينة على أنفسهم ، وجملوه فرضا . ثم أنه حين رجع ، قدم جميع عسكرة أمامه ، وتأخر فيمن كان حشمه وخدامه ، بعدما تحقق أنه سيقترب بها لا محالة (٥) . ثم تفكر في عاقبة هذه البلاد ، وما تصير إليه ويحل بها من الفساد . وبها العلماء الذين حصر الله فيهم خشيته ، وواعد على ذلك (٦) نبوته ، ووصفهم بأخيار (٧) البرية ، وفي رضاه بشهادتهم عليه أعظم (٨) مزية .

أراد أن يحذرهم ، وينذرهم ، ويعلمهم بما لديه . وسأل الله أن لا يحصل هلاك واحد منهم على يديه . كتب لهم كتابا : « بد الخلد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، إلى كافة علماء « بني الأغواط » ، بد السلام عليكم ، ورحمة الله : إن بلفكم كتابي هذا اخرجوا غدا عيالكم وأولادكم « من هذه القرية

(١) نسخ : « وهربوا في الظلام ،

(٢) نسخ : « لا يستطيع على مشي الصحيح ، .

(٣) نسخ : « حين رمى عسكر الترك رميا شعلطا ،

(٤) في جميع النسخ : « ست » . والتصويب من قلنا

(٥) نسخ : « لا محالة ، وتصير جيوشه فيها جوالا » .

(٦) اسم الإشارة يعود على « خشيته » .

(٧) في جميع النسخ : « بخير » . والتصويب من قلنا .

(٨) نسخ : « أحسن » .

الظالم أهلها » وانما أخرج المدينة إلى جهة ، وعليكم أمان الله . وإن خفتم من بعض العسكر أن يوقع بكم ، وكلت بكم من يحرسكم . ولا تختلطوا بالقرم ، التي أراد الله ملاكها . فإن قبلتم النصيحة فاحذروا الفضيحة ، وإن أبيتم . فإنهم أولادكم عليكم . والسلام .

وختم الكتاب ودفنه إلى الرسول . فعندما وصلهم ذلك الرسول ، وجدهم في حيرة وكربة ، وقد هربت عنهم الأعراب الذين كانوا محاصرين معهم . وكذلك من خف حمله منهم . وبقوا متحيرين لا يعلمون ^(١) ما يصنعون ، ولا أين يتوجهون ، وأحدقوا بالرسول [يسألونه] ^(٢) ، وهو راغب عنهم ، وجعلوا يقبلون يده ^(٣) حتى كثر الزحام على تقبيل يده . مع أنهم كانوا لا يعنون به ولا يلتفتون إليه .

فلما أخذوا منه الكتاب ، وفتحوه ، وقبلوه ، بدما على الجبين وضموه ، أقروا مخصوصاً بالملاء ، ومقصوداً بمن كان منهم بصيراً لا من به المسمى ^(٤) . فيهم ^(٥) ذلك تفضل الملك وحله ^(٦) . ودلهم على مرغبتهم في العلم وأمله ، وحبه للخير وفعله . وانكبوا على الرسول والملاء ، وتمسكوا بهم ، وقالوا :

(١) نخ : « لا يعلم » .

(٢) الزيادة من نخ . تر .

(٣) نخ : « يده كأنه منهم » .

(٤) نخ . تر : (هم)

(٥) نخ . تر : « فيهم » .

(٦) نخ : « وحله وعدله » .

لا نجاة لنا إن لم ترحمونا ^(١) ، وتوجه ^(٢) يهاكم وكتبكم فينا ، فذنبنا أعظم
من أن يغفر ، وبميتنا - حقيق - أن لا تكفر . ولكن لا بد أن يكون لنا
جاهكم شقيما ، و [أن] ^(٣) تذكروا سيدنا بقول الله : « ومن أحيانا ، فكأنما
أحيا الناس جميعا » ^(٤) .

وها هو ما قد جمعناه لكم . ولكم اللنة علينا . وأن آيتكم أن تشفعوا لنا ،
فلا تترككم تخرجون ^(٥) من بين أظهرنا ، حتى تهلكوا معنا .

فأخذ العلماء كتاب صحيح البخاري ^(٦) - رضى الله عنه - وقدموا على
سيدنا [وسلموا عليه] ^(٧) فأعاد عليهم القول في نصيحتهم وشفقته عليهم ^(٨) .
فحكهم رجل منهم فصيح اللسان ثابت الجنان ، له معرفة بطريق السلوك ، واقتدار
على ما يخاطب به الملوك . وكان شاعرا فذح سيدنا بأبيات ، وقبل الأرض بين
يديه ، ودعا بالنصر والتسكين والعز والفتح المبين ، وشكر فله ، وقبل نصحه
وقوله ، وقال له :

يا سيدى إن جعلتنا عتقاءك : فامنن على هؤلاء القوم ^(٩) ، واجعلهم أرقاءك ،

(١) نبح : « ترحمونا بقيتيا » .

(٢) في جميع النسخ : « وتوجهوا » . والتصويب من قلنا .

(٣) الزيادة من قلنا لمناسبة سياق الكلام .

(٤) سورة المائدة ، الآية (٢٢) .

(٥) في جميع النسخ : « نخرج » . والتصويب من قلنا .

(٦) نبح . نر : « سيدى البخارى » .

(٧) الزيادة من نبح . نر .

(٨) نبح : « وسفقه عليهم ولم يرض بفطيتهم » .

(٩) نبح : « القوم لله نعال » .

واذخر أجر عفوهم (١) عند الله تعالى ، ولا تحقر ذمة (٢) من جاءك شقيقاً ،
ولا تفضحوه . « وما تفعلوا من خير فلن تكفروه » . (٣) وإن شئتم : يخرجون
من البلاد بأنفسهم خاصة وهي لك بما فيها (٤) . فأعرض عن مقالهم ، وقال
لهم : لا بد من قتالهم . ثم أمرهم بالقيام من عنده (٥) ، ولم يجهزهم على ما طلبوه
بكلمة من لفظه . فخرجوا من عنده مسرعين ، وطلبوا (٦) الخليفة مهرويلين ،
فدلهم عليه بعض خدامه ، وعينه لهم في مكانه (٧) ، فاستأذنوا عليه في الدخول
بمنزله (٨) ، وأرادوا أن يشفع لهم بوجهه ولفظه ، واعتذر لهم وأرجعوه في ذلك
حتى وعدم ، بعد أن أوعدهم (٩) . ثم بينوا له ما يعلم به السلطان ، وأنهم
يذفون مائة خادم (١٠) ، وخمسة آلاف ريال بوجهه ، ومائتين وخمسين بغيراً
كلها مختارة من خيار كسب العرب (١١) وأربعة (١٢) أفراس من عتاق الخليل ،

-
- (١) هكذا في جميع النسخ . ولعله : « عفوكم عنهم » .
(٢) نغ : « ولا تحقر ذمة » . وخفر الذمة : نقض العهد .
(٣) سورة آل عمران ، الآية (١١٥) .
(٤) نغ : « وهي بما لك فيها قاصة » .
(٥) نغ : « من عنده بلحظه » .
(٦) الخليفة : السيد محمد بن عبد الله .
(٧) نغ : « في مكانه ومقامه » .
(٨) نغ : « بمنزله في حفظه » .
(٩) أو عدم : تهددم .
(١٠) نغ : مائة خادم من الوصفان .
(١١) نغ : « العرب باحتكام » .
(١٢) أربعة : روى فيه اللفظ . لأن الفرس مؤنثة .

ومائتي ثوب . هذا زائد على النذر الذي [نعطيه إياه] ^(١) في كل عام . فضى
إليه وأعلمه بهذا كله ، وسأله أن يقبل منهم ، ويعفو ^(٢) عنهم ، فحيث رآه سيدنا
حريصا على هذا الأمر استحي أن يردده خائبا ^(٣) ، لعله أنه نصيح في خدمته
وخليفة في أكثر وطنه . فقال له : الأمر إليك والخير طويته عليك . فافل منهم
ما أردت ^(٤) . فخرج من عنده والبشرى تترأى ^(٥) في وجهه . فبشر العلماء
بالدفوع قومهم ، وقبول سيدنا بما في رأيهم ^(٦) . فطافق يدعو ^(٧) أولئك
العلماء كلهم ^(٨) لسيدنا ولمن كان لهم سببا في رضاء بما أرجو من الله قبوله .
ثم قاموا من عنده ودخلوا على سيدنا ^(٩) ، وطلبوا منه أن يكتب لهم بالأمان
والرضى بالعلماء ، وأن يسمى لهم المدد ، الذي يعطونه ^(١٠) ، على الدوام ،
ويستحق فيهم بحدود السنين والآيام . فامتنع من الكتابة ، وقال لهم ، أن أتيتم
اليوم بما ذكرتم ، أو تدفعوا منه ما قدرتم ، والباقي تعطون فيه رهائن ^(١١)

-
- (١) في جميع النسخ : « لعلوه » . والتصويب من قلنا .
(٢) نسخ : « ر » : « ينف » .
(٣) نسخ : « خائبا من منه » .
(٤) نسخ : « ما أردت ، ولا مرد لما قصدت » .
(٥) نسخ : « تترأ » .
(٦) نسخ : « ر » : « لرهم » .
(٧) في جميع النسخ : « فطافقوا يدعون » . والتصويب من قلنا .
(٨) نسخ : « كلهم لما رأوا قبوله » .
(٩) نسخ : « على سيدنا وهم بسطا » .
(١٠) في جميع النسخ : « يعطوه » . والتصويب من قلنا .
(١١) نسخ : « إلى هائن » .

من أبناء كبرائكم ومشائخكم^(١)، وإلا لم يكن لكم عندى أمان، وكلامى هو كتابى. فانصرفوا راشدين^(٢)، وقد تركت لكم مائتى ثوب، حبا وكرامة لكم، فزادتم فله ذلك إكراما، وشكروا صنيعة. ولم يبق عليه ملاما، فرجموا لأهلهم مبشرين ولما قدوم به جامعين. فلم يكن وقت العصر حتى أتوا بالليل، وعشرين خادما، وشيثا من العروس^(٣) وقالوا: نريد «الخلاصين»^(٤) الذين كانوا عندنا أن يرحموا إلينا. فبشهم معهم فى تلك الساعة، وبالتد شرعوا فى دفع القضة، والدرهم، والعروض. ومضوا يومهم كله يدفعون^(٥). وسيث اطمانت أنفسهم وتحققوا الأمان لديه، جاءت كبراؤهم وأعيانهم، ليدفع كل واحد ما عليه. ثم عين لهم ستة من كبرائهم الذين يأتون بأبنائهم، بكونون رهنا تحت يديه، فامثلوا لأمره، واستمعوا لقوله. فلم يكن ساعة، إلا وقد أتوا بكل من عينه لهم، وطلبوه أن يرتحل عنهم، ويخلف من يأخذ منهم، ويبقى رهائهم تحت يده، فوافقهم فيما رغبوه، وأجابهم لما طلبوه، لشؤم بلادهم، وقبح أرضهم.

فأؤها حميم، وغبارها عميم، فلا توافق كل ذى طبع سليم. فمنها هب ربح ولو نسيم الصبا، إلا وارتفع منها غبار عظيم، وأظلمت منه الأرض،

(١) نخ: «ومشائخكم فافهموا خطاى».

(٢) نخ: «راشدين وارجعوا لأهلكم».

(٣) نخ: نخ: «من العروس بالاستطاعة».

(٤) الخلاصين: كلمة إقليمية فى الحياة.

(٥) نخ: «يدفعون للمقوم والنصوص».

وامتلاً منه الجو طولا وعرضا (١). ومع ذلك أنه لا نبات فيها (٢) تمش به
الدواب ولا شجر بساحتها يكون منه الاحتطاب . وهذا يوجب الانتقال منها ،
والتباعد عنها . فوعدهم بالارتحال على أن يأتوا له بما بقى عليهم في « عين
ماضى » ، أرقبل أن يصلها . (٣) فاتفقوا على ذلك ، وخلف الخلاصة (٤) ،
وأصبح يوم الاثنين مرتحلا عنهم ، وأخذ معه أبناء كبرائهم ، الذين
وضعهم رهنا ، وكذلك رجالهم الذين أسروا ، وقد كان أطلق منهم رجلين :
أحدهما مداج ، والآخر مجروح ، ففضل عليهما (٥) . وأما الباقون ، فطلب
أهلهم فيهم الفدا ، كل واحد على قدر طاقته ، فقبل منهم ذلك ، وأمرهم
بالجعة في دفع ما بقى عليهم (٦) ، وكذلك الذي يفتدون (٧) به رجالهم (٨) .
ومن جملة ما أمرهم به أن يفض الخيل سرق (٩) من عسكره ، وأن الذي
سرقها (١٠) من الإعراب ، أحلافهم . وأن يردوها ، ويأتوا بها (١١) ، وإلا

-
- (١) نخ : « ولعرض » . نج : « عرض » ، والتصويب من قلنا .
(٢) نج : « لم » ، بقرها .
(٣) نخ : « أن يصلها فليتحروا » .
(٤) الخلاصة : المختارين من الجيش لاستخلاص الجباية .
(٥) نخ : « ففضل عليهما إل أن صار هو الممدوح » .
(٦) نخ : « عليهم لرواج بضاعته » .
(٧) في جميع النسخ : « يفتدوا » . والتصويب من قلنا .
(٨) نخ : « رجالهم عن إحسانهم » .
(٩) في جميع النسخ : « سرقوا » . والتصويب من قلنا .
(١٠) في جميع النسخ : « سرقهم » . والتصويب من قلنا .
(١١) في جميع النسخ : « أن يردوهم » ، ويأتوا بهم ، والتصويب من قلنا .

لم تكن فدية في إخوانهم . ثم مضى حتى نزل « الرشان » ، وهو أسفل الواد الذي ينزل من « أم الصلوع » (١) وغاية سيرة من « بنى الأغواط إلى « الرشان » ثلاث ساعات ، قاصداً « عين ماضي » . ولا نزل أتوه أهل « تاجموت » (٢) ، واستشاروه (٣) : هل يأتون (٤) له بالعطف في هذه الدار ، أو حتى ينزل عليهم . فقال لهم : لا نزل عليكم لأنى أن نزلت عليكم أخف (٥) أن يضركم الجيش (٦) ، فإن أردتم أن تدفوا على أنفسكم هذه الكفانة فدلونا على منزل بعيد منكم (٧) . وأما العلف فلا تحملوا أنفسكم بشيء . فقالوا : لا بد من ذلك . فحيث رأى حرصهم وعزمهم على ما أرادوا ، أذن لهم في أن يأتوا بثلاثين حملاً فقط ، ولا يزيدون عليها شيئاً (٨) ، وأعطاهم الإبل التي يحملونها عليها ، وأوصاهم أن يأتوا بذلك في المنزل الذي تعرفونه بعيداً عنكم « فدعوا له وشكروا فضله وفعله ، ومنتوا له منزلاً يليق به قريباً من « عين ماضي » . وانصرفوا بالإبل (٩) ، وتركوا منهم واحداً يكون دليلاً على المنزل الذي نعتوه وعينوه . وبالنسبة ارتحل ونزل على أربع

(١) نخ : « أم الصلوع — بصاد مهمله — بالتماضي .

(٢) نخ : « أهل تاودموت .

(٣) في جميع النسخ : « واستأشروه . » والتصويب من قلنا .

(٤) في جميع النسخ : « يأتوا . » والتصويب من قلنا .

(٥) في جميع النسخ : « أخاف . » والتصويب من قلنا .

(٦) نخ : « الجيش فإليهم .

(٧) نخ : « منكم في ذلك .

(٨) نخ : « شيئاً فيضركم .

(٩) نخ : « بالإبل ليأتوا بما بينوه .

سوانح^(١) في موضع متوسط بين « عين ماضي » و « تاجوت وأمسناج »
إلا أنه إلى « تاجوت » (٣) أقرب: يقال له « أمسناج » ، وهو موضع منبسط ،
ذو مياه وعشب (٤) ، إلا أن (٥) ماء بعضه أفضل من البعض . ولا نزلت
« الحلة » أهرعت الناس إلى « تاجوت » (٦) ، منهم بائع ، ومنهم مشتر (٧) .
وبعث معهم شواشه يتمتعون الناس ظلم (٨) أهل المدينة . وقد حصل لأهل
البلد ربح كثير ، وفائدة عظيمة ، حتى أنهم لو وجدوا نزل عليهم كل سنة ، بل
كل شهر (٩) ولا يضرهم ما يدفعون له (١٠) يجبران ذلك بالربح ، الذي حصل
لهم . فكانوا يشترون من « الحازنة » : النعم ، ثمانية رؤوس بريال
بوجه (١١) ، والبقر أربعة رؤوس بريال بوجه (١٢) . ومع ذلك (١٣) لم يدفعوا

-
- (١) سوانح : قد أشرنا فيما مضى إلى هذا الجمع ومخالفته لتقياس الصرفي .
(٢) نخ : « تاودموت وأمداج » .
(٣) نخ : « تاودموت »
(٤) نخ : « ذا مياه وعشب بالأرض » .
(٥) نخ : « آله » .
(٦) نخ : « تاودموت » .
(٧) نخ : « مشترى لثنيته » .
(٨) نخ : « من ظلمهم أهل المدينة » .
(٩) نخ : « كل شهر ، وتبقى جيوشه عندهم قيمة » .
(١٠) نخ : « له من المفرم » .
(١١) (١٢) نخ : « بوجه » . و « ريال بوجه » صرف جزائري قديم يساوي
فرنكا وستين سنتيما تقريبا .
(١٣) نخ : « ولم ذلك » .

لهم ديناراً ولا درهما (١) ، وإنما يدفعون لهم « البرانيس » (٢) والحياك ؛ وربما دفعوا لهم من التمر ، حتى أن الرجل منهم يأتي بالبرنوس (٣) الردي ، والحياك ، فيأخذ عدة رؤوس من البقر والغنم (٤) . وحيث رأى الناس لم تزل في قضاء حوائجها ، ولم تستتم من مآربها ، أصبح مقيماً ليقتضوا غرضهم ويكملوا مرادهم ، وركب هو بتصيد كما كانت عاداته في كل يوم منذ وصل (٥) . أما كن الصيد (٦) ، وخصوصاً الجبارى ، التى هى أعظم مصيده ، وأفضل مرغوبة ، وتفضل هذا الصنف من الصيد بلغ عنان السماء ، وأكثر من حديثه العلماء والأدباء . فتراهم تارة يذكرون حسنه (٧) ، وتارة يصفون رمل الطير عليه وخوفه ، حتى أنهم قالوا : ملحه سلاحه ، وسبيه جناحه . وما ذلك إلا لشدة اعتنائهم به (٨) أكثر من اعتنائهم بغيره . ومن شهد ذلك استحسنهم فيها قالوه ، وأعذرهم فيما استمالوه . وقد اجتمع عنده من الطيور الحسان ، المختلفة في الأشكال والألوان

(١) نخ : « أولاً درهما للجبر » .

(٢) في جميع النسخ : « البرانيس » . والتصويب من قلنا . والبرنوس ، أو البرلس : ثوب ينسج من صوف أو وبر ، له « إسكيم » يغطى به الرأس شتاء ، وهو من البسة الجزائريين الذين يقطعون المناطق الباردة ، كما أنه شعار البرابرة (القبائل) :

(٣) فخ : « بالبرنوس » .

(٤) فخ : « والغنم في ذلك » .

(٥) فخ : « دخل » .

(٦) فخ : « الصيد المطلوب » .

(٧) فخ : « حسنه وجوفه » .

(٨) فخ : « به وبغيره » .

ما لم يمتنع عند غيره . من الملوك (١) فكانت ترد عليه من كل مكان ، فيقبلها
ويجازي عليها الجزاء الكثير ، الذي أوجب جلبها (٢) . فلما كثرت عنده حمار
يختار الموارم (٣) ويقدمها ويفضلها على غيرها (٤) . وحق لهذا الصنف القديم
والفضل (٥) ، فله غرة زائدة على غيره من أصناف الصقور ، لأن الصقر نوع
وتحته أصناف كثيرة (٦) ، إلا أن بعضها أفضل من بعض في الصبر والإقدام
وغير ذلك . ومن فائته مشاهدتها ، ولم يحظ بزهرتها حين رسلها (٧) ، فعليه
« بمصورة الأسد » وقصيدة الفجيجي (٨) : فقد ذكر أن من أوصاف الطير
وأصنافه والاصطياد به (٩) ما يبرد الليل ويبري الليل . وبعد الامتحان ،
يسكرم الرم أو يهان ، وليس الخمر كالليان . وقد أحسن الفجيجي ،
حيث قال (١٠) :

(١) نغ : « من الملوك ، ولا رآها أحد من الغنى والصلوك » .

(٢) نغ : « جلبها بالعيان » .

(٣) الموارم : الجوراح المفترسه كالبلاز .

(٤) نغ : « على غيرها بالصوارم » .

(٥) نغ : « والتفضيل على الطيور » .

(٦) نغ : « كثيرة لذلك » .

(٧) نغ : « رسلها وغاب عنه معاهدتها » .

(٨) هو ابراهيم بن عبد الجبار الفجيجي ، توفي ببلاد السودان في أواخر

القرن التاسع الهجري ، وقصيدته هذه تسمى « الفريد في تقييد الشريد وترصيد

الوليد » . وهي كلها في الصيد توجد مع شرحها بخطوطا في « برلين » .

وتوجد — أيضا — نسخة خطية بمكتبة الجزائر ، تحت رقم (١٥٠٩)

(٩) نغ : « والاصطياد به حال التفجيجي » .

(١٠) أي على وزن البحر الطويل ، المقبوض المروض والضرب معاً .

أنى هل ترى الأيام تجمع شملنا ونحن على جرد سراع نطالع (١)
 لدى كل ربوة وأجراس طيرنا لما زجل من فوقنا وقاع (٢)
 وكانت شيمة سيدنا كقوله :
 فأصبح سدا للورى يظا النرى وتنظرو فوق الريا القناب (٣)
 ولو حضرني شارح « السلوانية » (٤) ، جلبت منه ما يناسب المقام ،
 ولكن لم يحضرني ، لأنني قيدت هذه الأوراق في أثناء السفر ، ولم تصحبني
 كتب في هذا المعنى أستعين بها ، ولا قوة حفظ نعول عليها ، وربما كان
 حذفه وعدم جلبه ألبق بخرصنا ، لأنه يؤدي إلى الخروج على (٥) ما نحن
 بصددده . وهذه الإشارة - هناك - كافية (٦) .

ثم أصبح مرتحلا قاصداً « عين ماضى » ، فوصلها في ثلاث ساعات .
 فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت ، وينوده قد أقبلت ، فزعت قلوبهم ، وطاشت
 عقولهم ، وغلقوا الديار ، وعلوا الأسوار وهم مصرخون ، وبانطاعة وطلب
 الشريعة معلنون . فزلت « المحلة » بقرب السور ، بنحو المائة ذراع . وكان
 ماؤها الذي ينزل من صدر الجبل ويدخل المدينة (٧) شاقا « المحلة » داخلا

-
- (١) نطالع : ينتظر الصيد ، وتقرب بروزه ، وتتطلع إليه .
 (٢) القعاقع : نوع من الغربان ذات لونين : أبيض وأسود . طويلة الذنب .
 مفردا قمقع وبصبح أن يراد بها أصوات الطيور أيضاً .
 (٣) القناب : جمع قنبع ، كقنفذ : القصير الحسيس .
 (٤) السلوانية : روضة السلوان . وقد شرحها أبو القاسم محمد بن عبد الجبار ،
 المتوفى بقاس سنة ٩١٩ هـ .

- (٥) نخ : عن .
 (٦) نخ : كافيات .
 (٧) نخ : المدينة للانتفاع .

من طرفها بما على الجبل ، نازلا بين أخيتها (١) حتى نفذ إلى الطرف الآخر
 بما على المدينة ، وجاوزه إلى المدينة على عادته ، ثم أن أهل المدينة مكثوا ساعة ،
 لا يرى شخصهم ولا يتبين خبرهم وتغير بعض الناس في أسرم ، حيث رآهم
 لم يخرجوا خوفاً أن يتغير السلطان عليهم ، فيوقع بهم . وبعضهم فارع (٢)
 لتأخرهم ، يريد أن يكون له نصيب في غنيبتهم كاللواتي (٣) قبلهم . فبينما
 الناس مترددون (٤) في أسرم ، شاكون في قدرهم ، وإذا بهم خرجوا
 بنسائهم وعلائهم ، مقدمون النساء أمامهم ، وتلك كانت عادتهم . فلما دخلوا
 إلى « الحلة » (٥) أمر السلطان من أوقف النساء بمكان بعيد من فسطاطه
 مستكبين عن بساته . وأذن للماء في التقدم ، فتقدموا وسلموا عليه ، وسألوه
 أن يرفق بهم ويشفق من حالهم وأن يعفيهم من التقطية الأولى التي فرضها
 عليهم ، فإنهم لم يقدروا عليها ولا طاقة لهم بدفعها . فلما سمع كلامهم
 واستمعى خبرهم أدركته الحنانة والشفقة عليهم ، وجعل لهم « لزمة » (٦)
 أقل من الأولى ، وأعطى لتسائهم سوار (٧) فضة لكل امرأة منهن (٨) .
 ورجعوا ، فدخلوا مدينتهم فأرحين مستبشرين بما أنعم عليهم السلطان

(١) نبح : « بين أحييتا ماشيا بصلصلته . »

(٢) في جميع النسخ : « فارحا » ، والتصويب من قلبنا .

(٣) كاللواتي : كاللناتم اللواتي كانت له قبلهم .

(٤) في جميع النسخ : « مترددين » ، والتصويب من قلبنا .

(٥) نبح : « دخلوا الحلة » .

(٦) لزمة : ضريبة .

(٧) نبح : « سور » .

(٨) نبح : « منهم الأولى فالأولى » .

واقتضاء فضله من تخفيف اللزمة عنهم والأمان (١) . ويوم نزوله على « عين ماضى » قدم أولاد يعقوب ، « القبالة » (٢) يابلهم وخيلهم التى اشترطها عليهم ، قبلها منهم . وبالتد أصبحت أهل « عين ماضى » يدفعون قطيعتهم من الخيل والخدم والدرهم ، (٣) فدفعوا جزءاً وكلوا الباقي فى اليوم الذى بعده . وتمذر عليهم طرف منها . فتفضل عليهم بترك خادم و فرس (٤) . وحيث رأوا « المحلة » مقيمة بساحتهم ، قالوا : فمؤلا لقد قصرنا فى ضيافتهم ، فأخرجوا مائة حل من الشحير : علف للمحلة (٥) . ثم أقام بها يوم الجمعة منتظرا القدوم « بنى الأغواط » بالزمة (٦) . فقدموا فى ذلك اليوم ، وقد أتوا يفيضها ، فدفعوه (٧) . وذلك خمسة آلاف ريال « بوجه » وأربعون خادماً . ووجهوا لإكمال الستين خادما الباقية من المائة ، والمائتين جملا وخسين جملا . وأوعده بأنهم سيمشون أربعة من الخيل التى سرقها (٨) « الخاليف » تصله فى منزله هذا (٩) ، وما بقى من اللزمة (١٠) ، فلم يقدروا على لحوقه فى الطريق بها ، وإنما يعملونها جملة إلى « معسكر » (١١) وإن قدرنا على لحوقه فتبارك الله .

(١) نخ : « اللزمة والأمان » .

(٢) القبالة : القليلون ، الساكنون ناحية الجنوب . وكلمة « القبالة » اقلية النزعة

(٣) نخ : « والدرهم عدده » .

(٤) نخ : « خادما و فرسا » . وفى نخ : « خادم و فرس منها » .

(٥) علف للمحلة : أى دواب المحلة ، من خيول و بغال ، وجمال و همل جرا .

(٦) نخ : « باللزمة » . (٧) نخ : « فدفعوه قادما » .

(٨) فى جميع النسخ : « سرقهم » ، والتصحيح : « نزلنا » .

(٩) نخ : « يصلونك فى منزلك هذا عاجلا » .

(١٠) نخ : « اللازمة » .

(١١) أى : إلى مدينة « معسكر » . وفى نخ : « إلى المعسكر بالتحقيق » .

فهم كذلك (١) وإذا بنجل من « بنى ميزاب » (٢) قد لحقوا إلى « الحلة » وتركوا عسكرهم نازلا على « بنى الأغواط » (٣) طامعين أن يتنقض سيدنا صهده مع « بنى الأغواط » ويخرجهم من بلادهم ويسلمها « لبنى ميزاب » (٤) فلم يلتفت لكلامهم ، ولم يسمع لقتالهم . فلما يشوامنه وتحققوا أنه غير متنقض عهد « بنى الأغواط » سألوا منه أن يعمل بينهم وبينهم (٥) صلحا ، ويأمرهم أن يطلقوا من كان محبوسا عندهم من « بنى ميزاب » (٦) فكتب لـ « بنى الأغواط » كتابا : « أن أطلقوا « بنى ميزاب » الذين حبسهم ولا نسرح أحدا من أولادكم ، إلا إذا أتاني كتاب من قبل « بنى ميزاب » : وأنكم سرحتم أولادهم . (٧) وأما الصلح فلا أحل لكم عليه (٨) فأنتم أعلم بما يصلح بكم والسلام .

وفي هذه الأيام التي كان مقيما على « عين ماضى » ، شرع فى إعطاء الدراهم والدنانير لوجوه قومه وقواد عسكره ومقدمى قبائله ، فلم يبق منهم أحد إلا أعطاه ، ولا صاحب خدمة إلا واساه ، ولا ذو نجدة إلا حاباه . ولما فرغ من العطاء الذى لا يرجع إليه ، ولا منفعة له فيه سوى الثناء عليه ، أخذ يعطى للقبائل على وجه العرض ، المرجو ثوابه - إن شاء الله - يوم الجزاء والعرض . فأعطى لكل قبيلة بقدر حاجتها ، ولكل طائفة على حساب أهلها

(١) نبح : فهم ذلك فى المخاطبة بالافواه .

(٢) نبح : « مزاب » .

(٣) نبح : « بنى الاغواط بلا ارياب » .

(٤) نبح : « مزاب » .

(٥) أى : بين بنى ميزاب ، وبنى الاغواط .

(٦) نبح : « مزاب » ، وفى نبح : « بنى ميزاب فلحا » .

(٧) نبح : « ولانكم لا اولادهم سرحتم » .

(٨) نبح : « عليه بالختام » .

فأوصلهم معروفه ، جلة وتفصيلا ، وعهم فضله ، حقيرا وجليلا ، فأوجب تخليد ذكره بذلك ثناء جليلا .

الحاصل أنه مها شهد أحد عطاءه في ذلك اليوم إلا جزم بأن نفس غيره من الكرام لا تسمح بمثله ، بل لا تجود بشر عشرة (١) . ولو نظر عاقل في سيرة غيره من الملوك وتأملها ، وتتبع أحوالهم وتحققها ، مع اطلاعه على سعة ملكهم وقوة سلطانهم ، ونسب ذلك للذي مدح من فعلهم ، لوجده لم يف بقدر مملكته ، ولم يناسب عشر منزلهم . وهذا أمر لا يخفى على ذي بصيرة ، ولو كان أمي . وحينئذ ينتلب للدح على سيهم ، فيصير في حقهم تقصا وذما . وإن بحث فيه يكون مزاحا وتهكا . وأظهر له الفرق بينهم وبين من ذكرنا بعض شتمه . وطوينا محاسنه الظاهرة من معاللة الدالة على فواضله وقضائه . فعلى هذا ، لو استيقنوا معه في ميدان المجد لما سبقوه ، بل لو جعلوا كلهم شق عدل ما وزنوه ولا ملقوه .

ليت شعري هل وجد في زمانهم افتجب خدمته وطاعته عليهم . وقد أحسن بعض أدباء العصر ، حيث مدحه بقصيدته المديزية التي دلت على كمال المدح ونصاحة وبلاغة [المادح] (٢) ، التي أولها (٣) :

بدأت بحمد الله في معرض الثناء

وفي الافتحار بهجة وثناء

(١) نخ : « بعشر عشرة بين الأنام » .

(٢) الزيادة من نخ .

(٣) هذه القصيدة من البحر الطويل ، المقبوض العروص المحذوف الضرب .

وبعد فان قصدى فى النظم شائع^(١)
 إلى مدح من رأى به البصراء
 ومن خصه ازرحن بالجحد والملا
 وحاز الفخار والمعالى سناء
 دعا فأجبتة المعالى مطيعة^(٢)
 وقد كان منها منعة وإباء
 وناقت^(٣) على الآمال آلاؤه التى
 بها للروى طراً غنى واعتناء
 وأتت له الطليام زمام [فضلها]^(٤)
 فنها له ما يفتنى ويشام
 ومن سيبه^(٥) للناس فيض ومرتع
 نعيم كثير دائم ورواء^(٦)
 فإت رمت حصرا فى كماله فارتجم
 فإت البحور لم تزلها ذلام

(١) الشطر الاول من البيت غنّال الوزن .

(٢) الشطر الاول من البيت غنّال الوزن .

(٣) ناقت ، : زادت .

(٤) الزيادة من فح ، والشطر الاول من البيت غنّال الوزن .

(٥) سيبه ، : عطاؤه الجزيل .

(٦) ورواء ، : الاصل فى الرواء الماء الكثير الذى يروى الظمان ، ويزيل عطشه .

- (١) ولو طار ألف عام. الطير مسرعا^(١)
 (٢) المصرا. فما قطعت بحققهن سما
 ولكن ذا نزر يسير ذكرته
 (٣) لتعرف منه جرعة صفياء
 وهناك اسمه أن كنت فيه منافسا
 بأغلى ثمن ولا تفل ذا غلاء^(٣)
 فخذ أربعين^(٤) ثم بعد ثمانيا^(٥)
 وكالأولى^(٦) ثم ختمه نصف حاء^(٧)
 ووضعه إلى عثمان قبل وبعد
 كما شئت أن تضيف قبله كناء^(٨)

- (١) الشطر الأول من البيت غير موزون .
 (٢) الشطر الثاني من البيت مختل الوزن .
 (٣) الشطر الثاني من البيت غير موزون .
 (٤) « أربعين » : يشير إلى حرف الميم الأول من كلمة « محمد » فإن الميم
 تعد بأربعين في حساب الجمل .
 (٥) « ثمانيا » : يشير إلى حرف الحاء من كلمة « محمد » فإنها تعد بثمانية في حساب الجمل .
 (٦) « وكالأولى » : أى كالميم ، إلا أنها تعد بثمانين لأنها مضعفة في كلمة « محمد » .
 (٧) « ونصف حاء » : يريد به حرف الدال ، من كلمة « محمد » . لأن حرف الدال
 يعد بأربعة في الحساب الجمل وهذا العدد بعينه يساوى نصف عدد « الحاء » ، التى
 تساوى خماسية كما تقدم ، والشطر الثاني من البيت غير موزون .
 (٨) « ووضعه إلى عثمان ... الخ » ، أى انسبه إلى أبيه عثمان الكردى ، الذى
 كان قبله في الوجود ، وكنيته أن شئت بأبى عثمان ، لأن عثمان اسم لابنه الذى كان =

وَأَكْثَرُ سؤلى أَن يَدُومَ عَظْمًا
فَلِلدِينِ وَالْدُنْيَا بِذَلِكَ بَقَاءٌ

وهى قصيدة طويلة تزيد على الخمسين بيتا . ولو جمعت ^(١) ما قيل فيه من كلام الشعراء موزونا وملحونا لاحتجت ^(٢) فى ذلك إلى عدة أسفار ، ومع ذلك فلتترك الثمة ونأتى بما هو مختار ، ولكن إن حضرنى شيء من ذلك فيما يأتى لأذكرن بعضه - إن شاء الله - من غير طول .

واعلم أنه لما قضت الناس جميع حوائجهم ^(٣) من كسوة وتمر . وتزودوا لماء وغيره أصبح يوم الأحد مرتعلا ، وأخذ طريق « رداد » . وهى بين جبلين ، تمر فى مسيل الماء ، إلا أن أسفل الوادى لا ماء به ^(٤) . ثم بعد مسافة تصل إلى الماء وتسير بسيره ^(٥) ، بحيث لا يخرج عنه يمينا ولا شمالا . وإنما صوب الطريق هو مجرى الماء حتى تصعد إلى قرب فم الواد . فسارت ساعات حتى نزل فم الواد . وهذا الواد ينزل إلى « النشيا » ، إلا أن ماءه ملح أجاج ^(٦) وأرضه ذات رمل وعجاج . فاستقى دوابه من لم يكن سقيهم من « رداد » . والبعض

= وجوده بعد وجود أبيه البابى محمد الكبير ، فإذا ناسم عثمان اشترك فيه أبوه عثمان الكردى وابنه عثمان بن محمد الكبير . والشرط الثانى من البيت مختل الوزن غير جار على القياس النحوى .

- (١) نج . نر : د جمع .
- (٢) نج . نر : واحتاجت .
- (٣) نج : حوائجها الدالة على خيره .
- (٤) نج : ولا ماء به وجاء .
- (٥) نج : بسيره اتصالا .
- (٦) أجاج : مر .

ذهب إلى ماء عذب بقرب هذا المنزل بنحو الميل ونصف ، واستقى منه لنفسه
وسقى دوابه ^(١) .

وبالقدر تحمل ومر « بالمالح » . فكانت طريقة بطن الراد حتى صعد
إلى « عجيبة » ^(٢) وأخذ طريق « القسم » ، ومر بعده بـ « المكدر » ، وفيه
عين ماء جارية على الأبد لا ينقطع ماؤها ^(٣) ، إلا أن ماءها قليل في
قته ، فلم يكف الجيش الكثير ، فجاوزه حتى نزل « الخير » على ست
ساعات . وبهذا المنزل ثلاث يون ^(٤) ، ومنها « شلف » . وهي أصله كما

ذكرنا سابقا ، وقد كانت نزل هذه الدار حيث كان ذاهبا لـ « بنى الأغواط » ،
كما سبق مبينا ^(٥) وهذا « الخير » من الأماكن التي لها بال في أرض الإسلام ،
من كونه ذا مياه كثيرة وأرض واسعة ^(٦) وجبال مرتفعة ومدن بهيجة متقاربة ،
إلا أن بعضهم اعمر بأهله كـ « قصر العجالة » و « قصر الرحامنة » و « تادامة » ^(٧) ،
واكثرها قد خرب وبقي أثر البناء دالا على بانيه ^(٨) ، وأعطى [وعظما] ^(٩)
لكل من رآه ومناديه : كما حكى : أن سيدنا — عليه السلام — مر بقرية ،

(١) نخ : « دوابه بما يراد » .

(٢) نخ : « عجيبة المحرر » .

(٣) ماؤها بالثبات » .

(٤) نخ : « عيون بعضها لبعض لا حقا » .

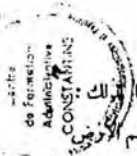
(٥) نخ : « مبينا بالأعلام » .

(٦) نخ : « واسعة شهيرة » .

(٧) نخ : « وتادامة بعبارة متجارية » .

(٨) نخ : « الأعلى بنائه » .

(٩) الزيادة من نخ : نر .



قد خربت حصونها ، وجفت أشجارها وأنهارها (١) . قتال غامطاً لذلك :
يا خراب أين أهلك ؟ (٢) فنودى — عليه السلام — : بادوا وضئتم الأرض
وعادت أعمالهم قللاً في أعناقهم ، فبكى وانصرف — عليه السلام — .

وهنا أمر مشايخ أعراب تلك النواحي أن يرجع كل واحد لبيته وأن
يكون باراً بأهله ورعيته . وذلك كشيخ « العمور » ، الذي كان قدمه عليهم
وعلى أهل « جبل راشد » (٣) كله ، كما كانت عادة أسلافه من قبله . وكذلك
مشايخ « أولاد يعقوب » ، « القبالة » وغيرهم . ولم يبق معه إلا « أولاد
خليف » (٤) . والذين سرحهم لم يذهبوا حتى يسأل كل واحد منهم الأمان
لنفسه وأهله ، فيؤمنه على أن لا يكون منه تقصير في خدمته ولا له
خروج عن رعيته وطاعته ، ويوصيه على أن يدفع « لزمته » في وقتها ، ويكون
قائماً بما لهما وما عليها ، ثم يصرفه (٥) . وباتت الناس تتعاطى كؤوس المسرة
والبشرى ، وتتذكر أن منازلها قربت من الظهراء ، بعد أن كلت أنفسهم
وهزت من الصحراء ، وكثر فرحهم حتى عاد وقت التمة يتقربون فيه البسكوا .
فكاد هذا الموضع أن يسمى « بدار الفرحتين » ، المؤذن بقرب البلد
وملتقى الملتين . وحيث برزت للناس أوطانها ، وذهب لغوبها (٦) وعناؤها ،

-
- (١) نبح : « وأنهارها وزالت مدونها » .
(٢) نبح : « أين أهلك ، الخليل والأشهر » .
(٣) جبل راشد : الاسم القديم لـ « جبل عمور » .
(٤) نبح : « أولاد خليف مبدلون لجهدهم وخيرهم » .
(٥) نبح : « يصرفه بنعتها » .
(٦) لغوبها : تعبها الشديد .

أصبح مرتعلا بمحلته مقتصرا في منزله ^(١). فكانت طريقته متعذرة مع « وادي سبتاق » ، فسار أربع سوانح ^(٢) ونزل « عين وزاحه » ^(٣). وبهذا المنزل مدينة ، إلا أنها خالية ^(٤). وأصابنا الثلج في الطريق ودام كذلك حتى نزلنا واسترسل حتى غطى السهل والجبل ، وعجز عن مكابذته الفرس الضعيف والجمل . ولما حطت الناس رحالها ^(٥) ، وبنت ^(٦) أخبيتها وخيامها ، قدمت « الأحرار الشراقية » بالإبل والخيول التي اشترطها عليهم ، فقبلها منهم وعفا عنهم ^(٧). وسألوه فيما بقي لهم من الإبل أن يعطوا قيمتها دراهم ، ويبنوا له تلك القيمة وإن وجدوا بعض الخدام ^(٨) دفعوا في كل ثلاثة من الإبل عبداً أو خادماً . فأجابهم كما طلبوه ورضى عنهم بذلك الذي طلبوه .

ثم أمر بتلك الإبل ، فأحضرت بين يديه وبعث للقياد ^(٩) أن يكتب كل واحد ما ضاع لقومه من الإبل ويأتون له بالمكاتيب ^(١٠) ، فحسب كل واحد

(١) نخ : « في منزله بالبائع » .

(٢) القياس في جمع ساعه ، ساعات وسياع وساع . ولم تدر لماذا خصص المؤلف لفظة « أربع » بهذا الجمع دون غيرها من ألفاظ العدد الأخرى ، فقد أتى فيها بالقياس .

(٣) نخ : « الوزاع » ، نر : « وزجة » .

(٤) نخ : « خالية مملنا » .

(٥) نخ : « رسالها أمامها » .

(٦) نخ : « وبنييت » .

(٧) نخ : « وعفا عنهم العفو الكريمة » .

(٨) نخ : « الخدام صحيحا لا عادما » .

(٩) نخ : « لقياد وكبراء القبائل » .

(١٠) نخ : « بالمكاتيب الحالية من الخلائل » .

ما ضاع لقومه وأزله بالمكاتب ، فدفعها لكتابه ^(١) ، وصاروا يذكرون كل
كل قبيلة ومالها وكل طائفة وما نابها ^(٢) ، وكما ذكروا قبيلة عين لما حفظها
حتى أتى عن آخرهم ، ولم يبق واحد منهم مات له جمل ، إلا أعطاه عوضه ^(٣)
أولاً كثر ، ووفى له عدده . ثم سأل على كِ ضاع « لحزن الشرق » من
الحليل ^(٤) ، فأخبر بذلك ، فأعطاهم تلك الحليل التي قدمت بها « الأحرار » .
فزادهم فله ذلك إكراماً وإجلالاً وإعظاماً . وقد كان وضعت يد
التجارب في كفه مرآة العواقب ، وتوجهت بتصاريف الدهور ، وعرفته بمصاريف
الأموال . فأرى على ملوك العصر ، بما أدبت به الشمس على البدر ، والبر على
النور . وقد قدمت فيما سبق أنى سأذكر شيئاً من مدحه ، وأستقد طرقاتاً مما قيل
فيه - إن فتح الله على به - . والآن قد من الله علينا بالإنخ في الله : السبد
الحاج أحمد بن السيد محمد بن علال القرومي ^(٥) ، داراً ومنشأً ، حيث ورد علينا
قاصداً حضرة سيدنا ، راغباً في نواله ، راجياً في آلائه . ومدحه بتصيدتين ،

أردت أن أذكرهما هنا ، لمناسبة ما قصدت ، وتوفية لما به وعلت ، لا سيما
وقد اشتملت أحدهما على محاسن المسجد الذي حلم ^(٦) به الزمان ، وسار في
الأفاق بحديثه الركبان . والأخرى على نيله « خريدة المعجائب » ^(٧) التي

(١) نخ : « وأزاله بالمكاتب فدفعهم لكتابه إزالة للومه » .

(٢) نخ : « وما نابها من أولهم لآخرهم » :

(٣) نخ : « وعوضه وصدده » .

(٤) نخ : « من الحليل بالاشتجار » .

(٥) نخ : « القرومي » .

(٦) في جميع النسخ : « وأحلم » . والتصويب من قلنا .

(٧) على نيله خريدة المعجائب : الضمير في « نيله » يعود على محمد الكبير ، =

- لم يذكرها غير قاصد ولا طالب . وهي هذه : (١)
 لقد أنجز الآمال وعدا من النصر
 كما أبرز الأقبال ما كان في القدر (٢)
 وأهدى فؤاد الفتح عذراء بلدة
 مثقلة الأرادق في الحلل الخضر (٣)
 تكلل بالشمس المنير جبينها
 كما أبهى معصم تسود بالبدر (٤)
 أحاط لها بالشعر من كل جانب
 أسود الثرى والنيل يرمق عن شذر (٥)

== والمراد بالنيل — هنا — مطربة ومرغوبة ، وهو فتحه مدينة الأغواط ، التي عبر عنها بـ « خريدة العجائب » .

(١) أى : القصيدة الرائية ، ذات العروض المقبوضة والضرب التام من البحر الطويل .

(٢) الآمال : جمع أمل وهو الرجاء . وبجمله من الأعراب النصب ، لانه مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على محمد الكبير .

الاقبال : خلاف الادبار والمراد به — هنا — السعادة ، والحظ والثروة . وهو مفعول به مقدم ، والفاعل مؤخر ، وهو « ما » الموصولة . القدر : — يسكون للدال — الطاقة ، والقوة .

(٣) فؤاد الفتح : قلب النصر . وهو محمد الكبير . عذراء بلدة : بلدة بكر لم يطمسها أحد قبله ، وهي مدينة الأغواط .

(٤) تكلل : تتوج . معصم : موضع السوار من الزند . والشطر الثاني من البيت مختل الوزن .

(٥) الشعر : المكان الذي يخاف منه هجوم العدو . أسود الثرى : أسود ==

حجبة دجما وبكرا غريبة

(١) فناهيك من ديم وناهيك من بكر

فكم رام قوم فك حسن ختامها

(٢) فباءوا بخمران وندوا عن المهر

لمن ذك الأبطال قهرا لمره

كما له كل الصعب ذل بلا عسر

محمد المستعمل الشهب مجده

(٣) على أنه في الأرض حازسى القعر

أمير له في الناس عدل وسطوة

(٤) فعامله في تلك يرفع بالجر

== الغاب والاصل في « الشرى » مأسدة بجانب الفرات يضرب بها المثل في شدة غضب أسودها . الغيل : الاجة ، ومقر الأسد .

يرمقن : ينظرون . الشزور : النظر ، بؤخر العين من شدة الغضب ، أو الاعراض .

(١) الريم : الظهي الخالص البياض . غريبة : لم تحنكها التجارب . وفي نر : « عزيزة » . فنا هيك : فيكفئك . ومعنى البيت : أن مدينة الأغواط يسكنها أبكار حسان لا يشتغلان بشئ . يكدر دلمين إحيائهن . فهن ملازمات خدورهن تحت رعاية ذويهن . فيكفئك : هنن كنل رائع في غاية الجمال ، الخلق ، والخلق .

(٢) رام : قصد فباءوا : رجوا . وندوا : امتنعوا . المهر : الصداق . والشرط الثاني في نيج . نر : « في أرجعهم في خيبة على المهر » .

(٣) سنى القعر : رفعة الفضل وشهرته . الشرط الأول من البيت مختل الوزن .

(٤) ومعنى البيت : أن المدوح صاحب عدل وقوة ، وعامل رفعة يكون ==

تقد دوح الأرض البسيطة طوله (١)
 لصاحب مرمى (٢) الحق أو صاحب الجور
 على رحبها ضاقت على وسع جنده
 فتسع من بعد صدى قر البتر (٣)
 كأن قرى الأغواط جمع مؤنث
 فيعمل فيه الفتح جيشه بالكسر (٤)
 لذاك ترى الأغواط إن ذكر اسمه (٥)
 تفقد رأسا هل أئين من النحر (٦)
 كأن بلاد الشرق والغرب كفه (٧)
 فيأمر بالعدوان فيها وبالفقر
 إذا رام (٨) شخص أن يحدث نفسه
 خلافا طوى عنه الأصابع بالمصر

== بالدفاع والجبر ، وغيرهما من مظاهر قوته وسطوته وفي اليب « تورية » ،
 باستعمال الجبر بمعناه الاصطلاحي اللغوية .

- (١) نخ : عدله ، والطول ، : الفضل والمطاء .
- (٢) « مرمى الحق » : هدفه ، الذى يتوخاه لرجل العادل .
- (٣) « نقر البتر » : صلصلة السيوف القاطعة .
- (٤) أى : كأن قرى الاغواط مثل جمع المؤنث للأبكار ففتحتها جيش محمد الكبير وكسرها . وفي البيت تورية .
- (٥) « اسمه » : اسم محمد الكبير .
- (٦) « تفقد » : تفقد ، والضمير يعود على « الاغواط » .
- (٧) « كفه » : طيبة له مثل كفه .
- (٨) « رام » : أراد .

فإن ^(١) كان في حرب تر الكون عابسا ^(٢)

وإن كان في سلم تر الكون في إِبْشَر

ترى مترف الأعداء حول خيائه

مصارعها ^(٣) للوحش أكلا وللطير

إذ رام غزوا بشر الطير بعضه

ونادى متنادى الوحش سبروا إلى الذخر ^(٤)

فن كلّ فج تقفو أثر نساله

على قدرها ^(٥) حتى الخفافيش ^(٦) والمزر ^(٧)

جواد له في الفضل أسنى مآثر

مكارمه جلت على العبد والحمر

(١) تر : « ولو » .

(٢) نخ : « عامها » .

(٣) « مصارعها » : الضمير يعود على الأعداء .

(٤) « الذخر » : كل ما يخبأ لوقت الحاجة . والمراد به — هنا — الغنيمة .

(٥) « على قدرها » : على طاقتها وسطوتها . والضمير يعود على النعال ، أو على الخفافيش والمزر .

(٦) « الخفافيش » : مفردة خفاش . وهو نوع من الطير لا يبصر بالنهار ويسكن — غالبا — في جوف سيقان الأشجار ، وفي الجحور أيضاً . ويشبه الجذران خلقه ، ويضرب به المثل في عدم الثبات ويقال له « الرطواط » أيضا .

(٧) « المزر » : — بكسر الميم — الطائش من الحشرات والشرط الأول من البيت خير موزون .

هو البحر جودا والمزير^(١)
 وروض الربى علا وفي بسة الزهر
 توشع بالعلم الشريف حقيقة
 لسنة خير الخلق مستند الظاهر^(٢)
 فيصطنع المعروف في كل أهله
 ولا^(٣) يفعل الأشياء إلا على سر
 فلو شاء إنس جمع ظرف خصاله
 لأذهله قسم الصحيح على الكسر^(٤)
 وحيره كعب السكارم والجدا^(٥)
 وأدهش في الترييح^(٦) منه وفي الجذر^(٧)

-
- (١) «المزير» : الأمد .
 (٢) نخ : «مستند للظاهر» .
 (٣) نر : «فلا» .
 (٤) أى . فلو أراد أحد من البشر أن يحصى خصاله المحمودة لما استطاع أن يحصى جميعها ، لأن خفيها أعظم بكثير عما هو باد للعيان ، والصحيح ، والكسر .
 نوحان من علم الحساب . وفي البيت تورية
 (٥) «الجدا» : العطاء والسخاء .
 (٦) «الترييح» : قسم من علم الحساب . وهو مربع العدد ، الحاصل من ضرب العدد بنفسه ، فالقسعة — مثلا — مربع ثلاثة .
 (٧) «الجذر» : قسم من علم الحساب . وهو عدد مضروب في نفسه . فالعشرة — مثلا — جذر المائة ، لأنها مضروبة في عشرة . وفي البيت تورية .

فتمتخرج الأسمار عند تقابل
 فراسته قبل التغاطب بالجبر ^(١)
 إلا يا أثيل المجد ^(٢) -يفك لم يزل
 ماويلا إلى أعناق أعدائكم يجرى
 ودانت لك الآمال والسعد قابل
 عليك بصغر الخلق والحر والسر
 وطافت ^(٣) بك الآمال من كل جانب ^(٤)
 تسوق لك المطلب تحت أعلى الأمر
 ولا زك عزّا ^(٥) يدوم ورقة
 ولا زك بمدودا من الله باليسر
 ودرت على الأبناء ^(٦) سحب سعادة
 تخلد من أعمالكم طيب الذكر
 فلما رأت عينا ^(٧) ذاتها جودكم
 ينادى بأعلى الصوت ^(٨) حتى على البحر

-
- (١) • بالجبر : • هكذا في جميع النسخ . ولعله : بالجبر ، يدل من ذلك .
 وفي البيت تورية .
 (٢) • أثيل المجد : • عريق الشرف . وفي نر : • أيا طريل المجد ... • .
 (٣) • نخ : • وطابت • .
 (٤) • نر : • جبهة • . والشرط الثاني من البيت يختل الوزن .
 (٥) • نر : • عمر • .
 (٦) • والابناء : • أولاد محمد الكبير .
 (٧) • عينا • من عظم سواد عينا ، وانسمت مقلتها . والشرط الأول من
 البيت يختل الوزن . زيادة عن غرض معناه .
 (٨) • نر : • جهر • .

ولين جمع ^(١) العالمين نداءه
 على نوعها حتى الثعالب والنسر
 فيسيفك يترى الطير لما من العدا
 وسيدك ^(٢) يرى ^(٣) الناس من ألم الفقر
 علمت على بعد إليكم مطيتي
 ولا من غوصاته ^(٤) طالب الدر
 وقتل انفسى ابشرى لمقاصدى ^(٥)
 ونيل مرام واقتبال من الدهر
 شربنا من القرات لا نظاماً بعده
 وانظرنا بالكنز الجبر للكر ^(٦)
 غدونا خلاصا نحو باب مكار
 ورحنا بطانا ممتلين إلى الوكر
 سلام عليكم يهيج الكون زوره
 ويملا بقاع الأرض من فتح المطر
 بحيسكم ما دام مطلع مدحك
 لقد انجز الآمال ^(٧) وعدا من النصر

(١) نر : جميع . .

(٢) سيدك : عطاؤك وكرمك .

(٣) نر : يد . .

(٤) نر : غوصته . .

(٥) نغ : المقاصد . .

(٦) كلا شطرى البيت غتلا الوزن :

(٧) نغ : الإقبال . .

وقال أيضا^(١)

لما التفت بواند الحسن البهر
بزجى المطايا^(٢) مغربا^(٣) في عسكر
خاطبته أين السير فأنى
أبمرت ما أدهى وأدهش منظرى
فأجانبى بلسان طلاق ناطقا
اسمع منالى وع دقائق نخب^(٤)
ألق العسا وفك رحل ركائبى
بالمسجد المنشى « بام العسكر »^(٥)

-
- (١) هذه القصيدة من بحر الكامل ، صحيح العروض والضرب معا .
(٢) بزجى المطايا . يسوقها برفق . وه المطايا ، جمع مطية ، كمطية ،
وهى الناقة والبعير ، وكل دابة تركب .
(٣) « مغربا » : من أغرب فى جريه ، اذا أكثر منه ، أو أغرب فى الأرض ،
اذا قصد الغرب . أو أغرب فى الشئ ، إذ بالغ فيه .
(٤) الشطر الثانى من البيت مختل الوزن .
(٥) « أم العسكر » : مدينة معسكر . وهى مدينة البطولة ، والشرف الرفيع
والنخوة العربية ، والعزة الاسلامية ، ومنها بُعثت الغيرة الوطنية . وقد كانت
فيما مضى قرية متوسطة يقطنها قبائل الاعراش وشرقا . « غريس » إلى زمان
مصطفى أبى الشلاغم : فأنح مدينة وهران للمرة الاولى فقد حول اليها مركز
الولاية من مازونة . وسكنها قاصبت منذ ذلك العهد مركزا لإدارة الدولة
ومستقرها . كما أصبحت فيما بعد مرتعا لجيوش الامير الحاج عبدالقادر . ومكانا
لائقا لنسيير حكومته .
والمسجد المذكور فى البيت ، هو مسجد عين البيضاء الذى شيده محمد =

قامت زوايا خطوطه في وضعها
 فبحنه شكل المربع مخبر^(١)
 فتراه أصفر قائما في أحمر
 فان وأبيض ناصع في أخضر
 روضا تخلخل فضة من مائة
 متقنعا بقناع نور أزهر
 ثم النعام على بحور نوره
 من طل وابله فثيت العنبر^(٢)
 تحيا النفوس تنزها في شكله
 من حسن بهجته وذاك المنبر
 فكأنما سوداء زنجية غدت
 عليها حلى من النجوم الزهر^(٣)
 وسط المساحة قبه مبروعة
 من فوق أبهى قوائم من مرمر^(٤)
 خرد^(٥) تجل على الفلافل سوقها
 محصورة من غير آل الأصفر

-
- (١) « مخبر » : — بكسر الباء — اسم فاعل . أى شكل مربع المسجد يتخبرنا
 بحسن بنائه ورواقه . والشطر الأول من البيت غير موزون .
 (٢) « فثيت العنبر » : أريجها ورائحته الطيبة .
 (٣) الشطر الثاني من البيت مختل الوزن .
 (٤) الشطر الثاني من البيت مختل الوزن .
 (٥) « الخرد » : — بفتح الخاء — المرأة الحسناء . وقد شبه هذا المسجد =

عجباله من مسجد في الأرض قد
 حاكي السماء تظاولا في المنخر
 لو لم يكن ^(١) فلك لما كانت به
 زينة الكواكب والنريا به الحرى
 تحويه مدرسة غدت آثارها
 تحييه بالعلم الشريف الأشعري ^(٢)
 تمنى رسوم الجبل من الواحه
 تمنى شمائله عن الزور السرى
 بنه الأمير ^(٣) محمد في الترب قد
 لاحت آثاره كالصباح السفر
 هبت رياح النصر فوق بنوده
 ويهب للأعدا بريح صرصر

== بامرأة فائقة الجمال . وشبه اسطواناته بسيفانها المنزهة عن الاغلال ، كما أن
 هذه الاسطوانات مطوقة ببعض الحلقات المعدنية الثمينة من غير جنس الذهب ،
 لأن الذهب محرم على ما سوى النساء في شريعة الإسلام ، وهو المعبر عنه
 بـ «آل الأصفر» . والشطر الأول من البيت غير موزون .
 (١) نخ : ديك . . والشطر الثاني من هذا البيت مختل الوزن .
 (٢) «الأشعري» : نسبة إلى أبي الحسن على الأشعري زعيم أهل السنة ومؤسس
 المذهب ، المشهور في علم الكلام . وقد تقلد عليه خلق كثير ، من أشهرهم الإمام
 الكبير أبو الحسن الباقلي .
 (٣) نخ : «أميرنا» . والبيت غير موزون بكلا شطريه في جميع النسخ .

في جود هارون في عدالة ناصر
 في رأى كسرى في عظمة ^(١) قيصر
 لم ير في تقع الوقائع طرفه
 بالطرف إلا بالسيل السم
 سقت ^(٢) كاون البحر بل كاليد بل
 كالشمس بل كالبارق المتحدر
 يشتد حرا للنجيع ^(٣) ظلامه
 والشكل [قد] ينو بحسن الجوهر
 التي عليه الرعب من جلبابه
 ما ينبيء الأعدا بالموت الأحمر
 من نار أخرجه الجرد ضفته
 كلام يشق أكل لحم المنحر
 لم يجمع الضدين ^(٤) إلا سيفه
 عجباً لتشاة عنصر من عنصر
 إن كان وصل الملك قد ما بن على
 بمحمد ^(٥) وصاله فهو الحرى

(١) نخ : وفي ضخامة .

(٢) سقت : ضمير المخاطب مئة يعود على الباي محمد الكبير .

(٣) النجيع : الطعام النافع ،

(٤) نر : والعندين .

(٥) نخ : ومحمد .

فخر الزمان ملكه ^(١) من فضله
 بين الأنام على زمان النذر
 وخزيمة ^(٢) مع عمر والضحاك من
 أولاد جفنة من أساب ^(٣) حير
 إن كان فيهم بالزمان تقدم
 كم تنسب الآثار للمتأخر
 خذها بكف لليدين ^(٤) فإنها
 عنراء لم يطمشها ^(٥) غير تفكر
 وابق سيعدا خاتم العلياء قد
 كلت خصالك فأعذر ثم افر

ومن هذه الدار ^(٦) استأذنه « مخزن الشرق » في الانصراف ، فأذن لهم
 فيه ، ورحلوا قرب الزوال ^(٧) . وبقيت « المحلة » مقيمة على حالها . ثم « أولاد
 خليف » كذلك ^(٨) ثم استأذنته « الأحرار الشراقة » أيضا ، فأذن لهم وانصرفوا

(١) نمر : « تليذ » .

(٢) نخ : « وبجذيمة » .

(٣) نخ : « من أبناء » .

(٤) نمر : « لا يدين » . والضمير في « خذها » يعود على القصيدة .

(٥) لم يطمشها : لم يمسا . والشطر الثاني من البيت مختل الوزن .

(٦) أي : « وزاحة » .

(٧) نخ : « قرب الزوال لنفي الانحراف » .

(٨) نخ : « كذلك في ارتحالها » .

بعد ما دفعوا الخليل والإبل ، التي أتوا بها^(١) . وباللد أرتمل من «وزاحة»^(٢) والنصر ينفق أثره^(٣) وقدامه^(٤) . فسار أربع ساعات ونزل قرب «الحليات» ، فتوى نزول الثلج ، واشتد البرد ، وتحرك الريح بعد سكونه وعربد . فاقام يومه بذلك المكان ، ينتظر تبسم الجو وإذا بريح العبا هبت وزحزحت السحاب حتى ربيء في أجاء السماء الصحو وحيث زال عبوس الغمام ، وظهرت الأودية والأكام أصبح مرتحلا . وكانت الطريق تمر على «الحليات» ، فوصلها وقت الضحى^(٥) وسار بجرا تارة وتارة رملا^(٦) (٣) ، إلى أن مضى من النهار ثمان ساعات ونصف ، فنزل بموضع يسمى «واد الدهان»^(٧) . وقد وجدنا فيه ماء كثيرا من أثر المطر^(٨) ، وغدرانه متسمة جدا ، بحيث تكفى الجيوش الكثيرة ثم أرتمل باللد وتزل الواد الذي يزل من «ريسة»^(٩) على ثلاث ساعات . ثم منه إلى «دير الكاف» ثمان ساعات .

ولما وصلت «الحلة» إلى هذه الدار ، وضربت أخبيتها^(١٠) أمرت

(١) نخ : «بها محضا» .

(٢) نخ : «الوزاع» .

(٣) مر . د امامه .

(٤) نخ : «وقدامه بالتحليات» .

(٥) نخ : «الضحى بالنزعات» .

(٦) نخ : «وسبا وتارة رمل» .

(٧) نخ : «واد الدهان الزلة الشهيرة» .

(٨) نج : «وغرانه» .

(٩) نخ : «ينزل للدراسة» نج : «ينزل مدرسة» .

(١٠) نخ : «أخبيتها الحيافة» .

إليها [التباثل] (١) باللف والضيافة . فشكل قبيلة أنت بما قدرت عليه .
وقدمت « الأحرار العاربة » بفادتهم (٢) [إليه] (٣) . وأما الإبل التي كان
جعلها عليهم (٤) فانهم قدموها إلى « غريس » ينتظرون بها قدم سيدنا
— أيده الله — . ثم أصبح مرتحلا ، فصار ثلاث ساعات ، ونزل « ضاية » (٥)
سیدی الطيب « ، فأتت الرعية — أيضا — بالضيافة واللاف ، وكافعلوا
بالأمس (٦) . وبالغد ارتحل وجاوز « واد العبد » ، ونزل بلاد « أولاد عوف »
على خمس ساعات ، فأتوه — أيضا — بالضيافة والدف (٧) ، وكذلك من بقي
من الرعية « كالولاد خالد » ، و « أولاد إبراهيم » وغيرهم (٨) ، ثم جمعت
الناس ترد عليه من « المسكر » : مثنى وفردى ، وجماعات . واستمر فعلهم
على ذلك إلى البيات (٩) . وقد تباثر بقدمه الدهر ، وقابل (١٠) أيامه بالأسعاد
حتى صارت من حسناتها كاللوازم والأعياد ، وعم خصبه الأهل والرعية والبلاد .
فزال عنهم كل غم ، وارتفعت عنهم الأحران والأنسكاد . وكانوا يريدون (١١)

(١) الزيادة من نخ .

(٢) بفادتهم : - بالاناف المثلثة - بقوادهم والسكلمة إقليمية .

(٣) الزيادة مع نخ .

(٤) نخ : « عليهم نصره الله » .

(٥) ضاية : هكذا في جميع النسخ . وامله « ضيمة » .

(٦) نخ . « بالأمس لنيل الأرب » .

(٧) نخ « واللف لنيل المرات » .

(٨) نخ : « وغيرهم بالسوية » .

(٩) البيات : الليل .

(١٠) نخ : « وقبلت » .

(١١) نخ : « يريدون » .

أن يندوه بالأهل والمال . وذكر وروده - عندهم - أعلى من العذب الزلال ،
واحق الناس بالترقب ^(١) والمال ، وأولادهم يقول من قال ^(٢) :

لمرك قد مرت بلاد المشارب

سرور ضمبي بشر بالمشارب ^(٣)

وانها من مرتع الخصب ^(٤)

يحدث أن الروض ليس بمازب

قد استثمرت روح الأمانى ^(٥) رواحها ^(٦)

وشامت ^(٧) بروقا أمت بالسحاب

وعند طلوع البدر ليلا تسابقت

إليه تحي داكبا بعد راكب

هذا ، وقد تضاعف الفرح في ذلك اليوم ، وبات أكثر الناس يراقب

الصباح ، فلم يساعده النوم . وحين بقي من الليل ساعات ونصف ، جد
في السير ^(٨) .

(١) نخ . نخ . نخ . الترقب .

(٢) هذه الآيات من وزن البحر الطويل المقبوض العروض والضرب معا .

(٣) الشطر الثاني من البيت يحتل الوزن .

(٤) نخ : زائد .

(٥) نخ : الأمان .

(٦) نخ : روحها .

(٧) وشامت بروقا : نظرت إليها أين تمطر وأين تنزل .

(٨) نخ : في السير بالافتدار .

فلما وصل إلى « غريس » ، وجد خدامه : « الخازنية » تعرضوا له بإبل
 « الأحرار » . فنزل منها أربعين رجلا ، قسموا على من مات له شيء بعد ما كان
 أعطى لكل من مات له عوض ما حلك له ؛ إلا أنهم ^(١) مات لهم بعد ذلك
 نحو الأربعين رجلا ، فأعطاهم بدلها هنا ^(٢) ، والباقي طبعه كالعادة ^(٣) والسنة
 السابقة المتأخرة . وحيث كملت الإبل بالطبع ^(٤) ، ركب ودخل لـ « لمسكر »
 وقد تم له ما أراد من الأشياء ، ونال المحمدة التي استحق بها الاستملاء على
 الثريا ، فألقت عصاها ^(٥) واستقر بها النوى ، كما قر عينا - بالإياب - المسافر .
 وكان دخوله يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الثاني ^(٦) ؛ قبل
 وقت العصر ؛ في أول الساعة الثامنة .

قد انتهى ما كنا أردنا جمعه ، وكل النرض ^(٧) الذي انتخبنا وضعه وتحرينا
 فيه جهدنا ، وجعلنا الاختصار وعدم التكلف فيه قصدا .

قله الحمد على ما من به من إكالة ، والشكر له على ما منحننا ^(٨) من إنعامه
 وإفضاله . ونسأله - سبحانه - أن يجعله موافقا لمن جمع لترضه ، لأكون

(١) نبح : . له . .

(٢) نبح : . هنا تحلية له . .

(٣) أي : ختم على ظهرها بالطابع ، حسبما جرت به العادة .

(٤) نبح : . بالطبع المشتهر . .

(٥) عصاها : الضمير يعود على « المحلة » ،

(٦) نبح : . الثاني بالثامنة . .

(٧) نبح : . المراد . .

(٨) نبح . نبح : . منحننا . .

مؤدياً لبعض حقه علينا وفرضه . فمرأ كبر داع^(١) إلى جمعه ، وأقوى سبب
وحامل^(٢) على وضعه .

قال ذلك [وكتبه]^(٣) قتيب ربه ، وأسير ذنبه : عبيد الله تعالى ، وأقل
عبيده ، وأحوجهم إلى توفيقه وتسيده ، أحمد بن محمد بن محمد [محمد]^(٤)
(بفتح الميم) بن علي بن أحمد بن هطال^(٥) ، طالباً من الله تعالى أن يحبر
صدع قلوبنا ، ويفسر جميع ذنوبنا ، وأن يجعل استعدادنا لمعادنا .^(٦) إنه ولي ذلك
والقادر عليه .^(٧)

وصلى الله على سيدنا محمد [وصحبه]^(٨) وآله عدد ما ذكره الذاكرون .
وغفل عن ذكره الغافلون . « وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »^(٩)
« سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله
رب العالمين »^(١٠) .

(١) نخ : « داعيتنا » . نج : « داعى » . والتصويب من قلمنا .

(٢) نخ : « سبياً وحاملاً » .

(٣) الزيادة من نخ

(٤) الزيادة من نخ .

(٥) نخ : « بن هطال » . كان الله له يوم ترادف الأهوال .

(٦) نخ : « لمعادنا وأن يوفقنا لمعادنا » .

(٧) نخ - نج : « عليه بكمال » .

(٨) الزيادة من نخ .

(٩) سورة . بولس ، الآية : (١٠)

(١٠) سورة الصافات ، (الآيات : ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢) وفي نخ : « سبحان
ربك رب العزة عما يصفون وسلام والحمد لله رب العالمين » انتهى بحمد
الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجليل ، وهو حسبنا ولعمركم الوكيل .

« كل تقييد هذه الأوراق عشية يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر الله
« ذى القعدة » سنة اثنتين بعد المائتين والألف ، على يد عبيد ربه ، وأحوجهم
إليه ، المقر بذنبه ، وتقصيره : محمد بن البشير بن محمد « آقراى » . التلسافى
داراً ، ومنشكاً . غفر الله له ، ولوالديه ، ولأشياخه ، ولجميع المسلمين والمسلمات
والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء - منهم - والأموات . ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلى العظيم .
« وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين » .

يوم (٢٢) ذى القعدة سنة (١٢٠٢ هـ) (١)

هذا ما تبسر لنا أن تأتى به ، وفق الأمر من قبل ومن بعد .

المحقق : محمد بن عبد الكريم

الجزائر ١٩٦٢/٤/٣ م

فهرس أهم المراجع

(١)

- ١ - أبو اسماعيل بن عودة (المزارى) : طلوع سمك السمود ..
(مخطوط تحت ملكنا)
- ٢ - أحمد بن علي بن سحنون : الثغر الجاني ، في ابتسام الثغر الوهراني ..
(مخطوط تحت ملكنا)
- ٣ - أحمد بن هطال : رحلة محمد الكبير إلى الجنوب ..
(مخطوط تحت ملكنا)
- ٤ - أحمد بن هطال : رحلة محمد الكبير إلى الجنوب ..
(مخطوطان بالمكتبة الوطنية تحت رقم : ١٦٤٣ - ١٦٤٤)

(ح)

- ٥ - حسن خوجة التركي : در الأعيان ..
(مخطوط تحت ملكنا)

(ق)

- ٦ - فورقوس (GORGUOS) : ترجمة (رحلة الباي محمد الكبير ..
(المجلة الافريقية لسنة ١٨٥٧م)

(٢)

- ٧ - محمد أبو راس : عجائب الأسفار ..
(مخطوط تحت ملكنا)

فهرس الموضوعات

الصفحة	
١١	١ - تقديم :
١٣	٢ - التعريف بإصاحب الرسالة :
	(أ) نبه . (ب) وظيفته . (ج) وفاته .
١٥	٣ - الباي محمد الكبير :
	(أ) التعريف به . (ب) اسمه . (ج) كنيته . (د) لقبه .
١٥	٤ - دور محمد الكبير في الحكم :
١٨	٥ - مدة مكث الأسيان بوهراڤ :
١٩	٦ - استعداد محمد الكبير لفتح وهران :
٢٤	٧ - أعماله وإنجازاته :
	(أ) اعتناؤه بالفقراء والمساكين . (ب) حرصه على الثقافة والمتقنين .
٢٧	(ج) اعتناؤه بالتشييد والبناء :
٣٩	٨ - مكاتبه بين رؤساء الدول :
٣١	٩ - أوصافه الحسية ، وأخلاقه المعنوية :
٣٢	١٠ - ملاحظة هامة :
٣٣	١١ - منهاجنا في التحقيق :
	١٢ - الرسالة :
١٠٢-٣٤	١٣ - فهرس المراجع :
١٠٤	١٤ - فهرس الموضوعات :
١٠٥	١٥ - فهرس الايات الكريمة :
١٠٦	١٦ - فهرس الأعلام والألقاب والكنى :
١٠٧	١٧ - فهرس القبايل والأجناس :
١١٠	١٨ - فهرس أسماء الكتب :
١١٢	١٩ - فهرس أسماء الأماكن والبلدان :
١١٤	٢٠ - فهرس القوافي الشعرية :
١١٨	٢١ - فهرس الألفاظ المعجمية والاقليمية :
١٢٥	

هـَذَا الْكِتَابُ

يتناول ثلاثة عناصر هامة ؛ من تاريخ الجزائر
الإقليمي - على عهد الأتراك هناك - تلك
العناصر التي فلما نجد لها في سائر المؤلفات التي
تناولت تاريخ الجزائر العام .

العنصر الأول : إبراز الحوادث الحقيقية ، التي عاشها المؤلف
وشاهدتها بمرأى العين ؛ بما فيها الاضطرابات
السياسية ، والثورات الداخلية ، والعوائد الإقليمية
التي يميز بها كل إقليم عما سواه .

العنصر الثاني : المنهج السياسي الذي كان ينتهجه حكام الأتراك
تجاه المارقين عن الحكم . والمتمردين على
الإرضاع - آنذاك .

العنصر الثالث : الثقة الثابتة التي كان يتمتع بها علماء الجزائر
من طرف حكام البلاد ، وسواد الجهاد .

نه كتاب جدير بالقراءة .

التي

مجموع